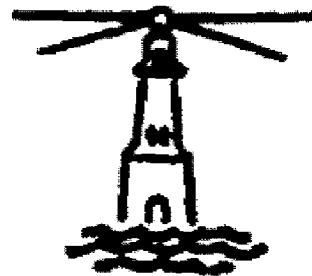




تصديق أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر



صوفت عبّدا لله

الفنّان الأحمر

اقرأ ٣٩٣

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٣٩٣)

الناشر : دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

إهداء

إلى رجل كنت أتمنى أن أضع بين يديه هذا الكتاب ، والكتب التي
نشرت لي من قبل ، على مدى ربع قرن ، فيكون أسعد خلق الله بها . .
ولكنه رحل قبل الأوان . . .

إلى أبي . . . « عبد الله واصف »

مع حبي وحنيني للذين لم يخفف منهما مر السنين الطوال . . .

مصر الجديدة

١٩٧٥

صوفي عبد الله

هذه الأفاصيص كتبت في الفترة من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٧١ .

ص ٠ ع

القَفْصُ الْأَحْمَرُ



شيء ما جاثم في الظلام . . شيء مهول يملأ فراغات الحجرة من
حولها . . وهي راقدة . . راقدة على ظهرها . . عيناها مفتوحتان على سعتيها . .
الدقائق تمر ثقيلة . . ثقيلة . . والنوم يراوغها ويهرب منها . . إحساس
غامض يملكها . . يزين لها أشياء وأشياء . . وتضيق الحجرة على سعتها . .
تكاد تزهد أنفاسها . . والعرق ينزف من جسمها كقطرات دماء . . .

وكالعادة ، مدت يدها في الظلام تتحسس الحبة المنومة بجانبها على
« الكومودينو » وبين أصبعيها التقطتها . . ووضعتها في فمها . . واعتدلت
تشرب كوب الماء إلى آخر قطرة فيه . . .

هكذا ، عليها أن تبتلع مرارة الحياة حتى الثمالة . . . لقد اختارت
طريقها . . . والآن تجني ثمار ما اختارته . . .

ألعابها حقاً أرادت لنفسها ما أصبحت فيه الآن ؟

في ريعان الحياة ، يستهين المرء بما بين يديه . . وفي أواسطها ،
يتحسر على ما فاتته مع أمل يراوده . . أما في خريفها ، فالألم يحفر
أخاديد عميقة تطفح مرارة كلما طافت بها الذكرى . . .
وهوت . . .

فتاة في ريعان الصبا ، اكتمل لها الحسن والثقافة في الخارج ،
في الوقت الذي كان التعليم فيه بالنسبة للفتاة أملاً صعب المنال . . .
دونه ألف عقبة وعقبة . . فمابالك بمن امتطت متن السفن إلى الخارج ،

ونالت منه حظاً يعتبر العجب العجائب . . . وعادت ترضن باللسان ،
وتنظر من أعلى إلى الأهل من حولها ، كأنها من طينة غير طينتهم . . .
وتهافت الخطاب . ومن شاق شموخها راحت تنظر إليهم الواحد في
إثر الآخر وتمط شفتها وتشيح بعينها الخضراوين الواسعتين في امتعاض
 وأنفة ، فمن فيهم يستطيع أن يسامتها مكانة ؟ فالمدرس والحامي والموظف
لا يرقون إليها . . . صحيح أنها موظفة بوزارة المعارف . . . ولكن باب
الترقيات أمامها مفتوح على سعته . . . فمن ذا الذي استطاع أو استطاعت
أن يبحر مثلها إلى بلاد الإفرنج ؟ أقل القليل . . . إذن لتتظر أن يأتيها
من يليق بها حقاً . . . فليست على عجلة من أمرها . . . ففسحة الحياة
أمامها واسعة . . .

وراحت تتعالى وتشمخ ، وتصف كلامهم بصفة ، وهي ترده عن
بابها معتذرة . . .
ومرت الأيام . . . وتبعها السنون . . . وانقطع الخطاب بعد أن وجدوا
منها جفاء ورداً . . .

وفي أواسط العمر ازدهرت بالترقيات . . . ولكن جفاف السنين بدأ
يدب ويبدأ في أوصالها . . . ووصلت إلى مركز تحسد عليه . . . وتسلك إلى
حياتها شاب في نصف سنه أو أقل . . . طالب مبتدئ في كلية الطب . . .
بديع التكوين والصورة . . . كانت أمه صديقتها . . .

وعلى سبيل الترفيه ، اتخذت منه أنيساً وجليساً . . . فلا خوف
منه . . . ولا تهريب عليها . . . فالشاب في سن ابنها وأمها صديقتها . . .

وعلى سبيل الجد اتخذ روحياته معها . . أحبها . بل عشقها . . وكما
تتسرب دماء الشباب في العود اليايس فتحييه وتزهره ، كذلك أحيا
شبابه عودها الذى كان في طريقه إلى الجفاف . فازدهرت وأينعت ،
وأصبحت وكأنها شابة في العشرين . . .

عاشت معه الحياة التى لم تعيشها شابة . . بل راحت تعب منها عبثاً . .
كأنما تفزع أن تدهمها الشيخوخة ، قبل أن تظفر بكل طياتها . . .
ولكن الشاب كان ينظر إلى العلاقة التى بينهما نظرة أخرى . . .
كان يطمح أن يتخذها زوجة ، بعد التخرج . . لا اعتبار لديه لفارق
السن . . . أبدأ لم يدخل ذلك في حسابه . . هو يحبها ، ويريد لها زوجة
وكفى . . .

وعرض عليها رغبته ، فاعتبرتها مزحة تتفكك بها . . أحلام شباب . .
بل أحلام أطفال . . . وغضب . فأدنته . وداعبته . . ولم تجد مفراً .
وخوفاً من القطيعة وعدته . . وعدته وهى تعلم أن الأيام ستغير ما به . . .
ولكن الأيام غيرت ما بها هى . . فإذا المزاج ينقلب جذاً . . وإذا اللعبة
تصبح شغلها الشاغل . . .

ومع السنين تكتمل له الرجولة . . ومع السنين — مهما فعلت —
تنحدر هى إلى الشيخوخة . . والشوط طويل . . هى تدفعه . . وهو يكبو
مرة ، ومرة يطفو على السطح . . .

وبدأ يلعب ويصادق أقران السوء . . ولكنها مسئولة عنه . أرسلته
أمه إلى القاهرة ليعيش في كنف صديقتها . . وأوصتها به خيراً . . فأسكتته

بنسيونا بجوار بيتها . . للمبيت فقط . . أما وجباته ، وغسيله ، وكل ما يتعلق بملابسه وحاجاته ، فعندهم . . في بيتهم تحت إشراف والدها وأختها الكبرى العانس . . فأصبح فرداً من العائلة . . ولم يكن والدها الشيخ ، الذى يعبدها ، يرى مانعاً من زواجه بها .. فابتته أثيرة على نفسه . . حببية إلى قلبه .. وقد فاتها القطار .. وهذا شاب وأمامه مستقبل زاهر .. ومن عائلة طيبة . . فأحبه . وللحقيقة كان الشاب خدوماً . . وكان بالنسبة للعائلة الابن الأصغر المدال . . يشرف على جميع مطالبهم الطبية ، وغير الطبية ...

وتولاها حزن . حزن أن يفلت من يدها بعد أن زحفت بها السن . . ليال طويلة كانت تقضيها في التفكير : أنصف نفسها بزواجها من شاب في الخامسة والعشرين ، أو هو على مشارفها ؟ إقناعاً لنفسها أم خداعاً لها أن تربط حياتها بحياته ؟ وما مصيرها بعد ذلك ؟ كيف تمر بها السنون ، وهى إلى انحدار ، وهو إلى ازدهار ؟ ثم من يديرها أنه سيعيش لها ، وها هو من الآن يجذبه أقران سوء ، ويلتفون حوله ، ولا تستطيع له خلاصاً ؟ فما بالها إذا تزوجته ؟ أسيملكها التأثير عليه ؟

ليال وليال قضتها مسهدة ، وهو على وشك التخرج .. أصبح رجلاً يملئ إرادته . . يطلب منها الخضوع . . وهى أحياناً تجد نفسها تخضع ! عجباً ! أحياناً أخرى تتذمر وتنهره . . فيغضب . وينقطع أياماً . . وتحزن وتنطوى على نفسها .. ويذهب والدها إليه ، يرضاه .. ويعيده .. وتنسى .. وتندفع معه .. وتسمع الضحكات .. ويمتلئ البيت فرحاً وزيافاً ولهواً

بعد موات ... ونحس أن لا غنى لها عنه .. وأن الحياة بدونه مقبرة تقضى فيها بقية عمرها .. أما معه ، فمتسعة رحبة .. كل ما فيها زاه جميل كل صاحباتها يعلمن أنها خطيبته ... وكل صاحباتها ينتظرن يوم تخرجه ، ليرين كيف تتزوج هذه المتعالية المتأبية من شاب في سن ابنها .. وأوشك على إنهاء سنة الامتياز ، ولكنها كانت سنة مليئة بالمفاجآت .. ولا بد إن إقامته في المستشفى أتاحت له فرصاً كثيرة للعب ! لم تكن على يقين من شيء .. ولكن قلبها كان يحدثها بأن هناك أشياء وأشياء .. فقد تغيرت معاملته لها .. أصبح قليل الاكتراث .. كثير الشرود .. قليل الحضور .. متأففاً متضرراً .. لا شيء يعجبه .. ولا نزهة يصاحبها فيها .. معظم وقته يقضيه في النوم .. لا يحضر إلا إذا ذهب والدها لإحضاره .. وراحت تراجع نفسها : هل من الحكمة أن تتزوجه ؟ أو على الأصح : هل من اللائق بها أن تتزوجه ؟

ويراودها الحنين .. ويعنف حبها .. فهو في أوقات الصفر لا يدانيه مخلوق .. وما الحياة بدونه ؟ جذب وموات ... ! وأتاها يطلب أن تستقيل من منصبها الكبير .. تستقيل من عملها الذي أفنت فيه حياتها . ! تستقيل ليتزوجا وتصبحه إلى محل عمله في جحر قاص من جحور الريف .. !

— وكيف يكون ذلك ؟ وهل أترك مركزى الكبير بعد كل هذا الكفاح ؟ تستطيع أنت أن تجد عملاً هنا في القاهرة .. — كلا . أريدك أن تكونى زوجة الطبيب فلان .. تعنين بالبيت ..

وتلدن البنين .. لا المفتشة فلانة

— البنين ؟ ! ومن قال لك إننى أريد أبناء ؟ ! أنا لا أحبهم ..

— أما أنا فأعبد الأبناء ..

وأحست بكبريائها الجريحة تقطر دما .. ولفتها دوامة .. يقيناً هو
يعلم أنها لن تنجب ولا تستطيع لو أرادت ... وأفاقت على صوته
الأجش :

— إذن طريقانا مختلفان .. !

ووجدت نفسها تنمر وتصيح وقد شعرت بعروقها تنفر بالدماء

كاللهب !

— وهل خيل إليك أن أترك منصبي المحترم وأذهب خلف ناشئ

مثلك مجهول المستقبل ؟ أم خيل لك عقلك أنك ما دمت قد تخرجت

طبيعاً هكذا ضمنت النجاح . ! والعالم كله تحت قدميك . ! اذهب

يا صغيرى إلى حال سبيلك فليس لك فى حياتى مكان ...

واندفعت إلى حجرتها وأغلقت بابها .. وارتمت على فراشها تغلى ..

ولم تسمع الباب وهو يصفق وراءه .

كم من الوقت مر عليها وهى طريحة الفراش ؟ لا تدرى .. فحينما

فتحت عينيها كان الظلام يفرش حجرتها .. كثيفاً .. ضخماً ...

مهولاً ...

وأسرعت أصابعها إلى زر النور فوق وسادتها . وتنفست الصعداء

حين بدد الضوء الخافت تهاويل العتمة .. فلم يبق منها شيء ، إلا تلك
المرارة في حلقها ..

ونحرق سمعها صوت حركة المرور في الشارع الكبير ، أسفل نافذتها .
إن العالم مازال يسير .. واستجمعت حزنها ونهضت .

الماء لم يذهب بمرارة فيها .. مرارة فيها سرت إلى الماء ... !

وفي حركات آلية ارتدت ملابسها .. واستقبلت باب الخروج .
لا أحد كالعادة يسألها إلى أين .. من طرف عينيها لمحت والدها ،
يطل بظهره المحدودب من فرجة باب حجرتة ، ثم ينسحب بسرعة ..
كلهم هنا ينظرون إليها على أنها رأس البيت .. أختها العانس تسميها
« صاحبة المقام العالي » ... لا يكلمها أحد إلا إذا بدأت الكلام ...

أدارت ذلك كله في رأسها ، وهي تهبط السلم في بطء شديد ..
ركبتها لا تطاوعانها على أكثر من ذلك ...

وابتلعها حركة المرور في الشارع الكبير .. فتاهت من نفسها حين
تاهت عن الأنظار في الزحام .. وشدت قامتها في سمت المفتشات ...
من يدري ؟ الشارع غاص بالناس من كل صنف . ! مدرسات ..
تلميذات .. موظفين .. إداريين .. دائماً تنظر إلى العالم على أنه ديوان كبير ..
والمرارة مع هذا لم تغادر فيها ...

وفكرت في « خطة » الأسبوع القادم ... واستعرضت شخصيات
تلميذاتها السابقات ، ومرءوساتها اليوم .. وبدون أن تدري ، تراءت

أمامها صور الكثرات منهن . مهملات . كثرات الغياب .. متأخرات
في البرامج .. والعذر دائماً : الزواج والأمومة وإجازات الوضع . . . !
وزادت في فمها المرازة .

ووقفت أمام دكان يبيع المثلجات .
وتقدم شاب يلبس قميصاً برتقالياً — ما أسخف هذا الذوق على
جسد رجل ! — ففتح لها الزجاجاة ، وتقدمه الثمن في تأفف صامت ،
وأعطاهما الباقي في عدم اكتراث .. أف لآداب هذا الجيل ! ماذا يبقى
من التاجر إن فقد الاهتمام بالعملاء أيضاً ؟

وشق الهواء صغير حاد منغم متطاوّل ، كالحملة الموسيقية تخرج
من قيثارة .. والتفتت نحو الشاب باستنكار . . . !

ورأته يبتسم وينظر بإعجاب وزهو نحو ركن الدكان ...
قفص أحمر صغير ، بداخله طائر كناريا أصفر اللون ، كأنه
حلية من الذهب ، يمد عنقه نحو الأنوار الساطعة تنبعث من ثريا في
السقف ، ويرفع عقيرته بالصداح المرة تلو المرة ، كأنه يحكي النور ،
ويناجيه .

وقال الشاب متباهياً بخبرته الواسعة في الموضوع :
— هذا الأحمق ! تخدعه الكهرباء ، فيظن نورها ضوء النهار
فيغنى له . . .

وحدقت في الشاب طويلاً وهي لا تدري .. حتى ارتبك .
أحمق أو غير أحمق . المهم أن نفسه تفيض مرحاً بالنور ،

فيغنى . . . ويإنجاز سألته :

— للبيع ؟

وبغير مبالاة أجابها ، وهو يهز كتفيه :

— كل شيء هنا للبيع . . .

وعلى هزة رأسها الصامتة أجاب :

— ثلاثة جنيهات . . . بالقفص . . .

وفى صمت أخرجت الجنيهات الثلاثة ، ومدت يدها لتحمل القفص

— دعى هذا الغلام يحمله لك . . .

وهزت رأسها فى حزم ، وحملت القفص الأحمر . . . ومشت وسط

الزحام . مشدودة القامة لا تنأى من يراها تحمل بسمتها الوقور قفصاً

أحمر ، فيه طائر صغير أصفر اللون ، لا يعرف الفرق بين النور

الطبيعى وضوء الكهرباء . . . ويرفع لكل بارقة عقيرته بالغناء . . .

هوى والشمس



وانحسر الطابور الطويل .. الطويل جداً .. عن امرأة فارعة ..
شهباء الشعر .. زرقاء العينين ، زرقه رمادية في لون المياه الراكدة ..
عليها أسماك متعددة الألوان ، تصل إلى حداثها الممزق ... وفوقها
ترتدى سرة « بيجاما » رجالي من الكستور المخطط بخطوط حمراء ،
وفوق ذراعها روب منزلي من القطيفة ، نصل لونه ، فأصبح في لون قطة
رمادية جرباء ... وقد عصبت شعرها الطويل بإيشارب أزرق لامع ،
الشيء الوحيد الذي يشي ببقية من « غندرة » ، لم يستطع الزمن أن يقضى
عليها ... ولولا استقامة في عودها ... وشموخ في رأسها ، لظن كل من
يراهم أنها عجوز فانية ...

وتطلعت بعينيها الزرقاوين يميناً ويساراً في توفز .. ورأسها شامخ ..
تماماً كما كانت تفعل في الزمن الخالي ... والتقت نظراتنا ، وأقبلت
تعانقني .. واستسلمت مذهولة أمام المنظر .. المنظر الذي لم يخطر يوماً
ببالي أن أراها فيه ...

وأخرجت إحراجاً شديداً ، ووجدتني أسأله عن أبنائها وبناتها
جميعاً ، وخصصت بالذكر « شيرويت » . فقد كانت كبرى بناتها .
بارعة الجمال . وضاعة الوجه . كنجوم السيما فائنات الحسن ...
فضحككت ملء شديها ، وقالت بصوتها المنغم :
— أنا شيرويت ...

وانتابني ذمول فاجع ، لم أستطع معه أن أضبط عواظني ، وأنا أصبح
مستنكرة :

— شيرويت ؟ ! كلا ! . ظننتك

وقبل أن أتم ، ضحكت في مرارة ملحوظة ، وقالت :

— ماما طبعاً ! لو رأيته ؟ هي الآن أصغر مني سنّاً . . . !
ووجدتني أتأبط ذراعها في صمت . واصطحبتها معي إلى البيت

. . . .

هي الابنة الكبرى لعائلة نزحت إلى القاهرة بعد موت والدهم . سبعة
أطفال ذكور ، وثلاث إناث يكبرهم . وأم ثكلى ، وليست بشكلى ! . .
من يراها يظنها الرابعة بين البنات : شباب التفاتة ، واستقامة عود ،
وجمال قوام ، ووضاعة وجه . ثم هي عزوف عن أى عمل في البيت .
تركته بأحماله كلها . كما تركت خدمة الأطفال السبعة للصبايا
الثلاث . ! وعكفت هي على السعى يومياً ، من الصباح إلى المساء ،
على المصالح الحكومية تطالب بمعاش القصر ، الذين تركهم والدهم ،
دون مورد ثابت لصغر سنه . . . أو هكذا دائماً كان يقال ، حينما
نسأل عن الأم . . أما البيت ففي يد الكبرى « شيرويت » فالصغيرتان في
المدرسة ، وتساعدان قدر استطاعتهما ، حينما تعودان إلى البيت .

قطعة من الجمال النادر كانت شيرويت . أتذكرها تماماً ، حينما
كانت تهل بطاعتها في الشرفة . . ما أكثر من تهافتوا عليها . . بل تهافتوا
لطلب يدها . . .

يدها ؟ ! حاشا . . . ومن يخدم الأولاد ؟ ومن يغسل لهم ثيابهم ؟
 من يطبخ لهم طعامهم ؟ سبعة ذكور ، بل سبعة آلهة . وضعتهم الأم
 على عرش البيت ، وفوق رؤوس الصبايا الثلاث ! خادومات لهم يجب أن
 يكن ! الصغيرتان سمحت لهما بالذهاب إلى المدرسة ! أما الكبرى ،
 « شيرويت » فالأولاد مطالبون منها ، بكل ما يلزمهم . . .

هل تبرمت شيرويت ؟ هل تشكت يوماً مما تقاسى ؟ !

كلا . فقد وضعتهم فعلاً في عينيها . . الصغير : لم يكن تجاوز سنوات
 ثلاثاً . وأكبرهم في الرابعة عشرة . الصغير صورة من جمالها الفذ . .
 اعتبرته ابنها ، وعكفت على تربيته في حضنها . . يناديها ماما . . وبكل
 جمالها وشبابها وصحتها راحت تدور في فلك السبعة ، غير وانية أو
 متضجرة . . حرمت نفسها من متع الحياة لتتيح لهم ملبساً لائقاً ،
 وطعاماً مغذياً ، ومنظراً يحسدون عليه .

والعمر يمر . . والكدح يضع بصماته على الأيدي الغضة ،
 والحرمان يمتص الجسد الريان . لكن البسمة لا تفارق شفثيها وهي
 ترى غرس يدها يترعرع ويزدهر ويصبح شاباً ناضراً جميلاً متعة
 للناظرين . . .

هذا كان حالها حينما تركت الحى منذ سنين وسنين . وانقطعت عني
 أخبارها تماماً .

. . .

وعلى المائدة سألتها :

- وبعد ؟ وكيف حال الصبيتين ؟
- ورفعت عينيها عن الطبق أمامها ، واخرقتني إلى مرآة البوفيه من خلفي ، وقالت وابتسامة وضيئة في عينيها :
- تزوجتا . . .
- وهل رضيت والدتك أن تزوجهما ؟
- وهزت كتفيها في عدم مبالة وقالت :
- بل تزوجتا رغم أنفها .
- وأين هما الآن ؟
- كل منهما تعيش في بيتها قريبة مع زوجها .
- والأولاد ؟
- وهنا شعشت الابتسامة ، وانقلبت إلى ضحكة ملأت وجهها :
- أولاد ؟ لقد أصبحوا رجالا ، كل منهم في مركز يفوق الآخر .
- هل تزوجوا ؟
- جميعاً . حتى الصغير . أتذكرينه ؟
- وكيف لا . . . ؟
- له ولد وبنت متعة للعين . جمالهما ليس له مثيل !
- في مثل جمالك ؟
- ومرة ثانية تطلعت إلى المرأة ولاح في عينيها حنين دافق وقالت :
- بل في مثل جمال والدهما :

وعكفت على طبقها تأكل بأناقة وتأن . وقدمت لها طبق البفتيك ،
وأنا أسألك :

— هل أعجبك الحرشرف ؟

ولم تجبني ، بل راحت تقطع البفتيك بالشوكة والسكين في سهوم ،
ثم وضعت قطعة في فمها ، وهزت كتفها وقالت :

— أعجبني ؟ لقد فقدت التمييز بين الطعوم . .

وسكتت قليلا ثم أردفت :

— منذ زمن طويل . . .

وأحسست بغصة ، وأردت أن أغير الحديث فسألته :

— والذاتك ؟ أين هي الآن ؟

فابتسمت دون أن ترفع عينيها عن الطبق وقالت :

— والذات ؟ والذات تركت البيت منذ زمن طويل ، طويل جدا .

منذ تزوج شقيقي الثاني . أتذكرين كم كانت تحبه ؟

وهزت رأسي علامة الإيجاب فقالت :

— تعيش معه منذ تزوج . في المتصورة .

— وأنت ؟ مع من ؟ من إخوتك تعيشين ؟

وجلجلت بضحكة مقهورة وقالت :

— أنا ؟ أعيش بمفردي . . . إذا استثنينا الفيران !

ودون أن أدري صحت :

— بمفردك ؟

وهزت رأسها وقالت :

— بمفردى . فى البيت . بيتنا القديم . وقد تهدم . وفى السقف ثقب
يطل على منها أبناء الحيران ويخيفونى .. ولكنى لا أخاف . وممن أخاف ؟
لقد عشت فى هذا البيت عشرات السنين . صحيح أنى بعث تقريباً
كل ما فيه ولم يصبح لدى سوى حجرة النوم . وليست كاملة :
سرير ودولاب . المهم أن فرشى نظيف . . ولماذا الدولاب ؟ فكرت أن
أبيعه حينما احتجت فى الشهر الماضى أن أعالج ضرسى . وكان يؤلمنى
جداً . ولكنى فضلت أن أبيع الكنبه ، فقد أصبحت ولا
نفع لها عندى . أما المطبخ فقد بعث كل ما فيه . . كراكيب .
ليس لها نفع . واشتريت بوتاجاز . بعين واحدة ، لأصنع عليه
الشاي . الشاي فقط . فأنا لا أطبخ . لمن أطبخ ؟ سئمت شيئاً اسمه
الطبخ من كثرة ما طبخت ... آكل أى شىء .. أى شىء جاهز من
السوق . لا يهم ما دام الشاي موجوداً . .

وخلال الحديث حولت نظرها نحوى وقالت :

— أمعلك سيجارة ؟

وراحت تدخن فى سراهة . . وأردفت :

— أستطيع أن أشرب فنجان شاي ؟

وبين رشقات الشاي أخذت تم حديثها دون توقف :

— . . . طلبت من أمى أن تعيش معى . فطردتنى من بيت أخى

وقلت لإخوتي أن يساعدوني لأعيش . فقرر كل منهم جنيهاً . ولكن عند التنفيذ انكمش مجموعها - بقدرة قادر - إلى ثمانية جنيهاً . يستنفد الإيجار منها أربعة . والباقي . . .

ولم تم . فقلت :

- ولماذا لا تقيمين مع أحدهم ؟

وهزت كتفها وقالت :

- أن ألمح تبرما في عيني إحدى زوجات إخوتي كفيل أن يسمم حياتي كلها . ثلاثون عاماً عشت خادمة . . لم يبق في العمر بقية لإرهاق . . . تعبت بما فيه الكفاية . . بي رغبة في أن أستريح . . حياتي الآن ملكي . أنام كما أريد ، وأستيقظ وفقاً لأشاء ، هادئة . وحينما تنفذ نقودي أذهب إلى بيت أي منهم وأقضي يومين أو ثلاثة كما يروقني الحال ، أو على الأصح ، حتى ألمح نظرة تبرم من الزوجة . هنا أضع على جسمي كل ما أملك كما ترين الآن ، وأرحل . . كالبدوي أنا . . . خيمتي ثيابي التي على جسمي ! .

- ولكن . . أيرضى إخوتك أن تعيش بمفردك ؟

وبهدوء مذهل قالت :

- إخوتي ؟ كل منهم الآن ينعم مع زوجته وأولاده في بيوت كالقصور . ومن يريد أن ينغمس ما بينه وبين زوجته بأخت مثلي ؟ البيوت الحديدية لا مكان فيها للأثاث القديم . . !

— ولكنك لست أختاً عادية ؟

وهزت كتفها . وقالت

— ولو

ثم أردفت :

— لا عليك ! لا تظني أنني أضيق بهذه الحياة . لقد اعتدتها .

ثم أتدرين ؟ . .

وأدهشني في نبرتها ما يشي بشيء يشبه أفراح الطفولة حين
تكتشف عش عصافير ، وثبت فيها نظري ، فإذا بومضة تنوذب في
زرقة عينيها ، وقالت :

— لقد اكتشفت في حياة الوحدة وجهاً للحياة لم أكن قد
عرفته من قبل ، حين كان البيت غاصاً بساكنيه . صرت أسمع
للصمت وقعا . وأصبحت أجسر الآن أن أغني .
ولم أملك دهشتي وأنا أسألها :

— تغنين ؟

— طبعاً أغني . . . أغني للشمس ! هذه العشرات من السنين
لم أرها . كنت لا أفكر فيها إلا كوسيلة لتجفيف الغسيل . الآن بدأت
أراها وأحس بها . لا من أجل غسيلي كي يجف ، بل لأنها الشمس . .
بدأت أراها وحدها . . كما أنني وحدي . . .

وساد الصمت لحظة . . صمتاً خالصاً . . مرهقاً . . خلت أنني
سمعت فيه نبضي ، وقالت وعلى فيها ابتسامة خفيفة جداً .

— الوحدة ليست شيئاً مخيفاً كما كنت أظن . . . عندما واجهتها ،
 وحدقت فيها ، وجدتُها شيئاً أنيساً . . . حينما نعرف كيف نصادقها . .
 ولما صافحتني وأدارت لي ظهرها ، كي تمشي عالية الرأس في
 أسماها ، تطلعت من خلفها فإذا الشمس تلاعب ظل خطواتها الخفيفة على
 الطريق كأن بينهما صداقة من نوع غريب .

سَرَّهَمَا الْخَاصُّ



على غير العادة أحست دمها كله يندفع إلى وجهها . وارتدت إلى الوراء . ورفعت عينيها عن الميكروسكوب ، وحدقت - لمدة لحظة خاطفة - كمن روعها شيء غير منتظر . . حدقت في الكتلة الذهبية التي صارت تحت بصرها . وتحركت الكتلة الذهبية ، وانحسرت ، لتظهر من تحتها عيناان كالزمرد ، واسعتان كأنهما بحيرتان ، تنعكس فيهما أشعة الصباح الوليد . وهمتفت الدكتور «سها» عندما تمايلت نفسها :

- ما هذا الكلام يا كوثر ؟

- طبعاً لا أريد أن أذهب إليها .

- هكذا ؟ بدون سبب ؟ . .

- بسبب يا ست ماما . سبب كبير ، بهذا القدر . . .

وفتحت بنت الأعوام الخمسة ذراعيها على سمعتيها . ثم أردفت

بحزم :

- أرسليني إلى مدرسة أخرى من فضلك يا ست ماما ! أى مدرسة

تعجبك إلا هذه المدرسة !

وانحسر الاضطراب قليلاً عن وجهها ، وفرشت ابتسامة عريضة

فوق ما تبقى من اضطرابها وجذبت ابنتها من يدها ، وداعبت خصلاتها

الذهبية ، وسألتها بمحاولة واضحة للترفق والاستدراج :

- ما الحكاية بالضبط ؟ أهكذا كرهت المدرسة من أول يوم ؟

ألست أنت التي كسرت دماغى ، أنا وبابا ، في كى تذهبي كل يوم إلى المدرسة . إلى هذه المدرسة بالذات ، التي ترين سيارتها تأخذ أولاد الجيران ؟

وفتحت الصغيرة عينيها على سعتيها ومدت يديها كمن تقول إنه لا ذنب لما ولا حيلة فيما حدث .

— ولكنى لم أكن أعرف يا ماما . . . لم أكن أعرف !

— لم تكونى تعرفين ماذا ؟

— لم أكن أعرف أنهم أغبياء إلى هذا الحد . . .

وترأت أمام عين الصغيرة ساعة الصباح في بداية أول درس وقد وقفت الأبله تنادى الأسماء . . أول يوم في المدرسة وكل شيء زائط . أشبه بمولد ، ليس له صاحب ! .. وتكرر الأبله اسم كل ولد أو بنت أكثر من مرة ، إلى أن ينبهه أو ينبهها أحد ، ويذهب إلى الأبله ، وتضعه في كرسيه . واستمر هذا المولد إلى أن وصلت الأبله إلى حرف الكاف ، وزادت .

— كوثر سامح . . .

وسمعتها كوثر جيداً ، والتفتت بفضول لترى من هذه التي تشاركها اسمها . . ولم يرد أحد ، وصاحت الأبله مرة أخرى تنادى :

— كوثر سامح . . . !

ولم يرد أحد ، وانتقلت الأبله إلى اسم آخر ، وثالث ، وفي النهاية بقيت هي وحدها . وسألته الأبله .

— وأنت ما اسمك ؟

— كوتر .

وبصبر نافذ قالت لها :

— بـح صوتى وأنا أناديك . مائة مرة ناديت : كوتر سامح . كوتر

سامح . لماذا لم تردى ؟

واتسعت حدقتها دهشة واستنكاراً ، وقالت محتجة على هذا الافتراء

الواضح :

— هذا ليس اسمى !

— طبعاً اسمك . ليس هذا كوتر غيرك . . .

— أنا كوتر صبرى . . .

— اسمك فى الأوراق كوتر سامح .

ونظرت الصغيرة إلى وجه الأبله الذى ملأه التجهم ، وظهر

عليه التوتر والإرهاق رغم أننا فى أول النهار ، وتململت على قدميها

لتريح قليلاً حملها الضخم الذى تكورنى بطنها ، وظهر عليها الضيق .

وقلبت الصغيرة بصرها فى طول الأبله وعرضها وتكورها ولم تجد بارقة رجاء ،

فانفجرت باكياً . . . وخفت الناظرة على صوتها . . . وشرحت لها الأبله

الموقف . وسحبت الناظرة كوتر من يدها ولاطفتها . . . وانقادت

كوتر للظرف واللفظ ، واندمجت مع الفصل فى اللعب والأناشيد ،

ولكنها لم تنخدع . وجدت تحت لطف الناظرة نفس الإصرار على

أنهم يعرفون اسمها أفضل مما تعرفه هى !

ورفعت كوثر نظرها إلى أمها وقالت بלהجة الواثقة بموقفها :
 — أهم مجانين يا ماما ؟ ما هذا الاسم الغريب الذى يريدون كلهم
 إلصاقه بى ؟

وطرفت الدكتور سها بعينيها ، وتجدد تدفق الدم إلى وجهها .
 هذا ما كانت منذ زمن طويل تحسب حسابه . ولكن ما حيلتها « صبرى »
 هو الذى أصر . . . ترك الموقف كلغم يحركه الزمن سنة بعد سنة . . .
 كأنه يمكن أن يتبخر ، ولكن ها هو الآن قد انفجر . . .
 وأرخت أجنانها بأهدابها الطويلة وهى تحاول عبثاً أن تطرد الصور
 التى أطلقها الانفجار من قمقمها فى قاع البحر ، تتواثب حولها كالأشباح .
 رباه ! كيف يمكن أن تمتزج السعادة التى لاحد لها بالأسى الذى
 لاحد له ؟

كانت تعد الماجستير عندما تزوجته . كان وسيماً كالصبح .
 رقيقاً كاللحم . عطوفاً صافياً كأنه أسطورة . وبدأت كوثر تدق باب
 الحياة ، جنينا ينتظرانه معاً بكل أحلام الشباب . وكل أفراح
 الحب . . .

وكانت جالسة يوماً إلى ميكروسكوبها هذا ، تسجل ملاحظاتها على
 عينات من الشرائح ، حين رن جرس التليفون . . . وفى لحظة تقوض
 كل شئ . دهمته سيارة وهو خارج من النادى . كان شغوفاً بالتنس .
 وكجسم بلا روح . كحياة بلا معنى وبلا أمل ، واصلت وجودها .
 وقد انحصر الكون فى شرائح تحت الميكروسكوب . ودقات الحياة الصغيرة

على جدران بطنها تملقها بضيق واكتئاب . ترى لماذا تصر هذه
الحليقة الحديدية على أن تدق باب الحياة لتدخلها يتيمة ؟ . . .

أهى الصدفة ؟ أهى جذوة الحياة الكامنة فى أعماق شبابها ، تحت
رماد النكبة ؟ أهى عصا ساحر ، أخرجت من ظلمة اليأس هذا
البصيص ؟ لا تدرى ! لقد وجدت نفسها بين يوم وليلة محاصرة . كلما
أمعنت فى النفور ، تعقبها باهتمامه ورقته ، وصبره الواثق . وشيئاً فشيئاً ،
بعد أن أدلت اليتيمة الصغيرة على الدنيا بثلاثة أشهر ، بدأت جدران
الضباب الأسود يتغير لونها ، ليحل محلها ضباب أبيض ، كثيف
نعم ، ولكنه مثل كل ضباب - مهما كان كثيفاً - لا بدّ مع الوقت
ومع إلحاح الشمس ، أن يخف . ويشف . . .

ودخل صبرى حياتها قبل أن تم كوثر عامها الأول . . . كأنه
فاصل جديد من معزوفة قديمة تخللتها فترة صمت . . وجدت عود شبابها
ذات صباح ، تعلوه ورقة خضراء جديدة . . أنكرتها فى البداية ،
وتجهمت لها . . ولكنها بعد قليل ، رأت عندليباً يأوى إلى الغصن
المورق ويغنى . . ووجدت نفسها - على تجهم ملامحها الظاهري -
تفتح له قلبها ، لأن اللحن الجديد لم يكن جديداً تماماً . . كان تجديداً
للحن قديم عزيز ، هو كل حياتها . . .

وفى تسلل العافية بعد السقم الطويل ، سرى حناؤه وحبّه فى أعطافها . .
ومرة أخرى أحست الحياة تضجّ فيها باكتماها الطاغى . . وركنت
إليه . . .

وجلسا متجاورين . يعلمان انصغيرة على حجرهما الكلام .
ويصغيان لبغامها الشجي :

— با . . . با . . . با . . .

ونظرت إلى صبرى وقد طفر الدمع إلى عينيها . . فأحاط كتفها
بذراعه . وهدد ذراعها بأصابعه فى رفق ، ولم تكن بحاجة إلى أن تقول
شيئاً . . لولا ما فى طبيعتها الشكور من صراحة :

— الحمد لله . . الذى كتب هذه المسكينة ألا يخلو لسانها

الصغير من كلمة « بابا » .

فزوى ما بين حاجبيه ، ومال إلى الأمام ليواجهها فى عتاب :
— مسكينة ؟ وهل يخاللك شك فى أنها منذ الآن . . . وعلى

الدوام . . . ابنتى ؟ والمسألة ليست كلاماً . . . صدقيني !

وأسرعت تضع كفها على فمه :

— إنما عنيت أنها كانت خليقة أن تكون مسكينة . . . لولا أنت !

أليس من حق أن أشكر الله لأنه صنع المعجزة ، لى . . . ولها . . . ؟
وتمر سنتان ، ويدق أحشاء سها خلاق جديد ، ومع دقائقه المؤذنة
بالحياة ، بدأت المخاوف تراودها : ترى ماذا يصير إليه أمر كوثر ،
عندما يأتى هذا الأخ — أو الأخت — بعد شهور ؟ ما شكت فى
أن صبرى سيرعاها ، بكل ما جبل عليه من شهامة وسخاء نفس
. . . ولكن البشر بشر . والولد من لحمه ودمه شيء آخر . . . بيد

أنها لم تلبث أن قالت لنفسها :

-- وهل فى الإمكان أبدع مما كان ؟ إنه مهذب الفؤاد . ولن يشعرها بغربة . ثم هب أن بعض التفرقة اللاشعورية نجم مع الأيام ؟ فماذا باليد تملكه ذا ؟ أليس ذلك خيراً من اليمم الأجرد ؟

وآن للمخلقة الجديدة أن ترى النور . وجاءت ضحى . . . وراحت من طرف حتى ترقب مشاعر صبرى : كان فرحه بالوليدة جارفاً . ولكن لم يستغرقه . فى حرص شديد كان ينبئها ألا تفرط فى إثارة ضحى بخنائها حتى لا تغار كوثر . . . وصار يخصص معظم وقته فى البيت لتنمية صداقته بكوثر . يلاعبها ويحدثها وكأنهما ندان . ويحكى لها الأساطير . ويتنزه معها فى الحديقة الصغيرة بصبر ليس له حدود .

ومع هذا حدثها عقلها أن الغد قد يختلف عن اليوم . وإن كان حبيبك عسلاً . فلا تلعقه كله . وتلاطفت يوماً وهى تقول له :

— . . . ماما حدثتني فى أمر كوثر . وأعربت عن رغبتها فى ضمها إليها ، تخفيفاً للعبء على . . .

واحمرت عيناه وقطب جبينه وقال باقتضاب :

— لا تطرقى هذا الموضوع مرة أخرى . كوثر ابنتى ، وستظل ابنتى . . .

— ولكنها ، يوماً ما ، لابد أن تعرف الحقيقة . . . ربما أحدث

ذلك فى نفسها أثراً إن جاءت معرفتها متأخرة . . .

-- دعى هذه المعاذير . يجب ألا يكدر طفولتها إحساس بأى اختلاف بينها وبين أختها أو إخوة لها قادمين . أما زال قلبك فى شك من أمرى ؟

ولم تجبه بلسانها . . . رفعت في صمت أطراف أذامله إلى فمها . . .
ومنذ ذلك الحين لم تعد إلى هذا الموضوع . . . ولكن هاهي الأيام مرت .
وها هي الصغيرة تقف مفتوحة الساقين . وذراعاها وراء ظهرها ،
شاخصة البصر إليها . . . تطلبها بجواب شاف :

— ماما . ماما . لماذا لا تجيبيني ؟ أهم مجالين ؟ أيعرفون اسمي
حيراً مما أعرفه ؟

واينسبت الدكتورة سها . وطرقت بعينها مرتين أو ثلاثاً قبل أن
تجيبها :

— دعينا من هذا الآن . قولي لي أولاً ماذا صنعت اليوم في المدرسة ؟
— لا شيء . لعبنا . غنينا . ولكن هؤلاء المهاجرين . . . يجب أن
يصححوا اسم بابا . وإلا — وحياة بابا — لن أعود إليهم !
ومالت برأسها الذهبي إلى كتفها الأيمن في عناد تعرفه فيها أمها
جيداً .

وحارت بم تجيبها . ولكن وقد عليها حيرتها صوت آلة تنبيه
سيارة شق الصمت . وتركتها كواثر وهرعت كالمجنونة إلى الخارج :

— بابا . . . بابا . . .

ودق قلب سها بعنف لوقع هذا النداء الذي يتقد بالحب والتعلق
وفرحة الطفولة الواثقة كأنها لم تسمعه منها كل يوم مرات . فالיום له
وقع ينذر بالخطر : أتراها آخر مرة تقول هذه الكلمة بهذا الصديق ؟
وهذا الصفاء ؟ وهذا اليقين ؟ وهذا الجنون ؟

وأسرعت في أعقابها . على سلم الفيلا أدركتها . وهي تلتقي بنفسها
في أحضان صبرى . وهو يصعد من الحديقة . . .

ورفع صبرى بصره إلى سها يخيبها . بل يقبلها بعينه . وكوثر
مدفونة الرأس في صدره . . . وعبرت له بحياتها عن قلقها سافراً .
وهز رأسه يستفهم منها في صمت . وكان قد أتم الدرجات التسع
ووصل إليها . ونزلت كوثر إلى الأرض . ومالت سها على خده تقبله
كعادتها حين يأتى . ولكنها خطفت القبلة خطفا . وهمست في أذنه
بكلمتين :

— اسم أبيها . . !

ولأول وهلة لم يفهم شيئاً . لم يكن بباله إطلاقاً أن هناك مشكلة
تتعلق بأبيها . ولكن بعد لحظة خاطفة اتسعت حدقتاه اتساع التذكر
المفاجئ ، وأوماً إلى سها برأسه : « لا عليك . . دعى هذا لى »
وعادت سها إلى ميكروسكوبها وشرائحها . . تنظر . وتطيل النظر . .
ولا ترى شيئاً . .

وفي ركنهما الأثير في الحديقة ، جلس صبرى مع كوثر . وهي
تحكى له قصتها مع أولئك المجانين في المدرسة . . .

— أهكذا صنعوا ؟ دعيني إذن أحكى لك الحكاية . . قد تجعلنا

نفهم سر هؤلاء المجانين !

ووضعت كوعها على فخذه وجلست تصغى ، وهو يحدثها عن
شاب لطيف . طيب . محبوب . . . وما جرى له في الدنيا . . . وهي

مرحفة الآذان . . دقيقة . دقيقتين . عشر دقائق ، غارقة فيما يقول ،
ثم رفعت عينيها إلى سماء سبتمبر الصافية وهتفت فجأة تقاطعه :

— . . . ذهب إلى السماء أين ؟ في القمر ؟

— ذهب بعيداً جداً . وراء القمر . وراء النجوم . . . حيث

يعيش الملائكة في السماء البعيدة . . .

وشرد بصرها لحظة ، وقالت :

— ولكنى لا أراه !

— طبعاً . أما هو فيراذا . ريحه اليوم في عيد . لأن ابنته كبرت .

وذهبت إلى المدرسة . وأصبح اسمه يخيا كلما نادوها : كوثر سامح . .

وتجههم وجهها لوقع الاسم مرة أخرى . هنا في البيت . وغامت عيناها

كسواء فبراير . وضاق ما بينهما وهي تقول له :

— لا أريد هذا الاسم . أنت بابا .

— طبعاً يا حياتى . . أنا أيضاً بابا . وهو بابا . . اسمه في

شهادة ميلادك . . . كل الناس لهم بابا واحد . . وأنت لك اثنان !

واحد في المدرسة . وواحد في البيت !

وطبع على خدها قبلة يتمنى أن تكون فصل الخطاب .

ولكنها أبعدت وجهها عن فمه . لتلتفت إليه وقد مال رأسها إلى

كتفها الأيمن :

— أنا لا أعرف إلا « بابا » واحداً . . . في البيت . وفي كل

مكان . . .

ونقلها إلى حجره : وشد ذراعها حول عنقه : حتى لا ترى وجهه
المضطرب وقال لها :

— ولكن الناس يعرفون أن لك اثنين . واحداً للمدرسة . وواحداً
للمبيت !

— لنقل لهم إنهم مخطئون . قل لهم أنت هذا . قل لهم إنك أبنى الوحيد .
الآخر لم أره . لا أعرفه

... منهما قلنا . هناك شهادة ميلادك يا حبيبى

وسكنت لحظة كمن ترى أمامها طريقاً مسدوداً : ثم صفقت بيديها
طرباً وصاحت :

.. عندي فكرة ! . . . أختى ضحى صغيرة لا تعرف عقلها .
أعطيني شهادة ميلادها وأعطتها شهادة ميلادى !

وقهقه ضاحكاً ، ووضع سبابته تحت ذقنها الصغير ، وقال لها :

— فى هذه الحالة سيكون عمرك سنة . وتبقين فى البيت . وتذهب
هى إلى المدرسة . أهذا معقول ؟ أيقبلونها بالهزاة والمشاية : وهى تبلى
ثيابها كما تعلمين ؟ أين هذه الصغيرة التى لم تعرف عقلها من
كوثر العاقلة الذكية النظيفة ؟ أمممكن هذا ؟

وأسقط فى يدها . وضاعت الدنيا فى وجهها . وانفجرت فجأة
بأكية :

— لا شأن لي بهذا كله . أريد أن يكون اسمي كوثر صبرى . .

ألسن بابا ؟

وابتلع ريقه واستجمع جأشه وقال :

— عندي إذا فكرة أحسن !

وأشرق وجهها وسط دموعها . ونظرت إليه بأمل . . .

— . . طبعاً أنا بابا . ولكن سأخبرك بسر خطير لا يعرفه إلا قليلون

جداً : كثيرون من الكبار في داخل كل منهم حمار صغير جداً .

حمار لا يستطيع أن يرى الأشياء ولا يعترف إلا بالمكتوب على الورق .

كلما قلنا له شيئاً يخالف ما في الأوراق هز رأسه بإصرار ، ورفض

أن يفهم ما نقول . . .

وأنزلها عن حجره ، وجثم على أربع فوق الأرض ليقلد الحمار العنيد

وأخذ يطوح رأسه بحركات متصلبة يميناً ويساراً ، وهي تضحك ملء

شديها . . .

— أيمكن لحمار كهذا أن يفهم ما نقول ؟ مستحيل ! الناس

معظمهم سيكذبوننا ، ويصدقون شهادة الميلاد ، مهما قلنا لهم إني بابا !

فهل نجعل عقلنا بعقلهم ؟ طبعاً لا ! ليكن إذن لنا سرنا الخاص . سرنا

الذي لا يعرفه إلا أنت وأنا . . . هم يقولون ما شاءوا ، كوثر سامح .

ونحن وحدنا نعرف أن الاسم الحقيقي كوثر صبرى . سرنا الخاص . نحن

فقط نعرفه ولا يعرفه سوانا . اتفقنا ؟

ومد لها يده الكبيرة امتد عليها إبراما للاتفاق .

ولمحت عيناها ووضعت يدها في يده .

وفي الصباح . وقفامعاً على باب الحديقة . وعندما مرت سيارة المدرسة
ونادت الضابطة :

— كوثر سامح ؟

نظر صبرى إليها . ونغمز بعينه غمزة التواطؤ على السر الكبير .
وبفرحة « اللعبة الجديدة » نغمزت له بعينها أيضاً ، وتقدمت إلى السيارة
بمخفة العصفور

أشياء صغيرة



كلما فكرت في هذه المسألة شعرت برغبة في الابتسام . .
لا أدري أهدو ابتسام سرور ، أو ابتسام غيظ . أو ابتسام أمي ؟ . .
مجرد ورودها إلى ذهني يجعلني أتساءل : هل أنا مغفلة حقاً ، أو حصيفة ،
أو أن حماسة الشباب أولاً - ثم أشواقه بعد ذلك - هي التي دفعتني
إلى هذا المصير ؟ ! . . .

كان بيتنا بيتاً ريفياً . . أقصد ريفي التفكير : رغم أن إخوتي
وأخواتي - على الخصوص - بلغن آخر مراحل التعليم وتدرجن في
الوظائف . . وتدرجن زيجات مشرفة . . ويعشن مع أزواجهن على
آخر طراز العصر . . . وكنت أنا صغراهن . والفرق بيني وبينهن
كبير وكان يكبرني ثلاثة ذكور وصلوا إلى وظائف محترمة ، وولد يصغرنى
بسنوات في الإعدادية . . هؤلاء الذكور جميعاً كانوا يعيشون معنا
في البيت . . .

درجت على أن الذكر له حقوق لا آخر لها على الأنثى . . وكبرت
وهذا الاعتقاد يلمس وترأ حساساً في نفسي . . فأنا أرى والدى يعامل
والدتي بنوع من الخشونة الآمرة . . وهي تطيعه بلا تردد ! كانت
الخشونة تصل أحياناً إلى التعسف بلا مبرر إلا الرغبة في السيطرة . .
وكنت أرى والدتي - أحياناً كثيرة - تبكي بمفردها دون أن تفصح لى
عن السبب فأغلى في أعماقي . . ما الذى يجبرها على العيش معه ؟ كانت

عاقلة . . وأحببتها . وتمنيت لو أفديتها بنفسى . . ومن هنا تكونت عندى
 بذرة الشار للأثنى المفضومة الحق . . وتحولت البذرة إلى نبتة . . نبتة
 صغيرة دفعها إلى النمو بسرعة معاملة إخوتى . . فهم المسيطرون
 المتحكمون سواء أكان أبى موجوداً أم على سفر وكنت أتقبل
 منهم ذلك وأنا صغيرة . فتربىي كما قلت ريفية . . ولكن حينما كبرت
 والتحققت بالجامعة أصبحت أضيق بتصرفاتهم أشد الضيق . . خصوصاً
 وأننى كنت مثال الفتاة المدققة فى تصرفاتها . . أصلى الفروض جميعاً
 . . وألبس كما تلبس واندتى . لا كما أرى لندائى . . ولا أضع المساحيق
 ولالحق كنت جميلة بل جميلة جداً . . ومطمع كل شاب فى الجامعة
 وخارجها . . ولكنى استطعت أن أوقفهم جميعاً عند حدهم حتى
 كان يضرب بى المثل . . ويخشى منى . . وتتوقانى الطالبات قبل
 الطلبة لصراحتى وخشونتى . نعم خشونتى ! فقد كنت أثور لأى
 بادرة تبدر من الطالبات يشتم منها ميوعة . . ومع ذلك لم أسلم من
 فظاظة إخوتى . . وإملاء شروطهم بما يجب وبما لا يجب وكنت أرى
 منهم تصرفات لا تعجبني ومع ذلك تغتفر لهم ، لأنهم رجال ولا يعيبهم
 شيء !!

رجال . رجال . رجال .

هذه الكلمة أصبحت تشكل فى نفسى مأساة

ما الفرق بين ساوك غير محترم يرتكبه رجل أو ترتكبه امرأة ؟

لماذا يعاب على المرأة ما يغتفر للرجل . . ؟ أين إذن المساواة التى

ينادى بها من فوق المنابر . . وفى ابهات النساء ؟ . .
وكنتم أنافشهم وأحتد فى المناقشة . . . فينبى نى أصفرهم يسفه
كلماتى :

— يا حميقاء ! أى مساواة ؟ إنها حبر على ورق . . الفرق كبير
. . عظيم . . بين رجل وامرأة . حتى فى النطق . . أما ترين
كيف تنطق كلمة رجل . . بالتفخيم . . بعكس كلمة امرأة . . إذا
كنت لا تفقهين هذا المعنى . . فلأنك
ويضحك ملء شذقيه ويستلقى على ظهره فوق المقعد ويقول بصوت
آمر :

— أعطى كوب ماء ! بسرعة ! ما خلقت المرأة إلا لتخدم
الرجل وترعى شؤنه . . مهما كانت الظروف . . .
وأحس بيا فوحي يكاد ينفجر ، وأنا أصيح فيه :
— بل إن المرأة أشرف من الرجل . . والمساواة ستثبت لكم أنها
أقدر على إتيان الأعاجيب . . .
ويتدخل الأكبر ليقول :

— أى أعاجيب يا خرقاء ؟ أما قرأت التاريخ ؟ تاريخ الخليقة منذ
القدم ؟ ما من امرأة استطاعت أن تثبت جدارة فى شىء إلا وكان
الرجل مطلبها الأول . . ولا أريد أن أذكركم لك بالاسم . .
وقبل أن أتفوه بكلمة يصيح الثالث :

— مساواة ؟ بماذا تلغطين . . ؟ أى فتاة تستطيع أن تذهب

لتطلب يد شاب مهما رغبت فيه ؟ بل هو يختارها ويأخذها عذوة شاءت
أو لم تشأ . ! ما قولك في هذا أيضاً ؟

ولم يكن أمامي إلا أن أهزأ بكلماتهم وأقسم خم أن الفتاة ستأخذ
حقوقها كاملة . . . إن لم يكن باللين فبالقوة . . . وستختار من يعجبها . .
يستكون مساوية للرجل في كل شيء . . . حتى في أعمال البيت . .
ستقسم بينهما قسمة عادلة . !

وصاح الصغير العفريت :

— أسيلد مثلها أيضاً . . ؟

ولم أجبه . . وسمعت فقههاتهم وأنا أندفع كالقنبلة إلى كليتي . .
ووصلت وأنا في حالة من الثورة لا تقف عند حد . . وجمعت
تقرأ من صديقاتي ممن لهن آرائى ويعشن في أجواء تماثل جوى البيتي . .
ورحت أخطب فيهن . — وكنت خطيبة مقنعة بالفطرة — في حتمية
إنشاء جمعية من الفتيات الثائرات على وضع المرأة الراهن لتنال حقوقها
كاملة . . . وأول هذه الحقوق : عدم تحكم الرجل في المرأة ، مهما كانت
الأسباب . . . وإنما هي المساواة الكاملة ، بلا تمييز أو إجحاف . . .
وكان لدينا أستاذ شاب يعطف على قضية المرأة . . . ونتجادل معه
دائماً فيقنعنا أو نقنعه . . وكان معقولا جداً . . . وله باع في هذه
المسائل . . . وشخصية قوية . . . ومشارك في عدة جمعيات . .
وذهبنا إليه . . .

ذهبت بشورتى كلها . . . وغضبى كله . . . ورحت أناقشة فى حدة .
 وأسفه آراء الرجال . . . وأنعتهم بنعوت غير طيبة . . . ولم أكن أستطيع
 التحكم فى كلماتى . . . ولا أدرى ما فئت به بالضبط . . .
 كان يستمع فى هدوء . . . باسم . . . لم يقاضعنى . . . حتى انتهيت
 من إعادة كل ما كان من حوار بينى وبين أخوتى . ثم قال فى صوت
 خفيض :

— أيسرك فعلاً أن تنعدم الفوارق بين الرجل والمرأة تماماً ؟
 قلت وأنا لا أزال فى حالة الغليان :

-- نعم يسرنى . . . بل يثلج صدرى . . . !

فأجاب وهو ينظر إلى نظرة لم أعهد لها فيه :

— وما رأيك فى السعادة التى تستشعرها المرأة بحماية الرجل الذى
 يصطفيه قلبها ؟ أيستوى عندك القوى القادر المهيمن . والخرع الجبان
 المتهاون ؟

وصحت :

— كيف ؟ ألا تكون المساواة إلا إذا كان الرجل كما تصفه
 بالتهاون والجهن ؟

— كلا . وإنما قصدت أن المرأة تعجب دائماً بالقوة والقدرة فى
 شخصية الرجل . حتى إنها تخضع له طواعية . . .

فقلت وقد بدأ شئ من الهدوء يتسرب إلى نفسى :

— لا أنكر هذا . إلا إذا كانت طواعية الإذلال . فالموت حينئذ
 أهون . . .

— معاذ الله . . . ومن ذكر كلمة إذلال هنا ؟ إن لم يكن التفاهم
والحب هما وسيلة الرجل إلى قلب المرأة . . . فليكن التسليم والطاعة
هما سلوك المرأة إلى قلب الرجل . . .

وتفادت سحب الغضب في أعماقي وصحت :

— كلا لست من أنصار التسليم والطاعة . . . عيما كان التفاهم
والحب . . . وإنما أنا أريد لها مساواة عادلة : ليس فيها تجبر ولا غرض
سيطرة . . . وأعتقد أننا لسنا متفقين . . .

وانصرفت فجأة : قبل أن يفات زمام الغضب الذي أخذت
مراجله تغلى في صدري . . .

والآن ، أصبحت زوجة . . . زوجة لهذا الرجل نفسه . . . فلم يمر العام
حتى أتى بيتنا خاطبا . . . وقبله والذي على الرحب والسعة . . . أما أنا . . .
ماذا أقول ؟ شيء أقوى منى كان يجذبني إليه . . . شيء كنت أسميه
إعجابا شديداً ، وأنا أجلس قبالة في مقاعد الدرس في سنتي النهائية
.....

وأحبته . أحبته بكل أشواق الشابة التي لم يفتح قلبها لحب قبله . .
والآن . . .

ألمح في وجهه أحيانا بعض التجهم لتصرف من تصرفاتي . .

ثم لا يلبث أن يقول بعنف :

— قنت لك إن مثل هذه الأفاعيل لا تليق بك ..

ويستخدم النقاش بيننا .. وإذا بصوته يعلو على صوتي ليقول :

— يجب أن تعلمي أنني الرجل .. وأنتي أدري منك بما ينبغي ...
وأبلغ ريتي . وأمسكت على مضض ...

وهناك أشياء صغيرة كثيرة في البيت آنف أن يقوم بها هو ..!

أنا التي آنف لا هو ..! حتى كوب الماء قبل أن يطلبه .. أجد نفسي —
بدون أن أشعر — أسرع بإحضاره له....!

عجباً ! ما الذي حدث لي ؟

هل أنا مغفلة ؟ هل أنا حصيفة ؟ أو هل تنكرت حتمًا لكل ما كان

يغلي في عروقي ويثور في مخي وأعصابي من مبادئ وشعارات ؟ !

وابتسم ابتسامة نصفها سخرية من نفسي ، ونصفها إغضاء وتسامح

وسرور قرير ...

لا شيء من هذا كله

كل ما هناك أنني أحبيته

وهذا يغير كل شيء

الشاربُ المعقوف



سكينة المساء تفترش البيوت . . . وطفقت على لسانى . وأنا أرنو
من الشرفة . إلى الشوارع التى توارت مصابيحها . لترك المجال للنجوم
المتناثرة كالأحلام المشتتة . طفت صيحة مهندوسة :
-- يا قاهرى العريضة . . .

وجذبتنى من ثوبى يد صغيرة : تتزعنى من أحلام يخامرها
الشجن المكتوم . . يد ابنتى « زهراء »
-- ماما . لماذا هذا الظلام ؟

ورفعتنها وقبلتها وقلت لها فى مراوغة تخامرها فرحة تريد أن تطفئ
على الشجن . وعلى الظلام . وعلى السكينة :

– الليل جميل هكذا . يا صغيرتى . فى ضوء القناديل التى
أوقدها الله ألوفاً . . ألوفاً كثيرة بغر عدد . . بعيداً . . بعيداً جداً ،
لا يستطيع أن يطفئها أحد . . .

ولكن البنت زوت ما بين جاجيها وقالت بإصرار :

– أكره الليل . . . وأكره أيضاً عم عزام !

وجاء دورى أنا لأقطب حاجبى وتملكنى الحيرة ، وقد أنسانى
« عم عزام » . باسمه الغرب على سمعى ، ما كنا فيه من حديث
الليل . . .

– عم عزام ؟ من يكون عم عزام ؟

فتحت زهراء عينيها على سمعتهما : وقالت بدهشة ليست لها حدود :

— عم عزام ! . . . بواب الحضانة . . .

— إيه ؟ ماذا يصنع لك عم عزام هذا ؟

وضمت شفتيها القرمزيتين الصغيرتين : وقالت ببطء :
— يخيفني . . .

— يخيفك ؟ كيف ؟ هل يقول لك « يخ » ؟

— بلسانه ؟ لا ! إنه لا يقول شيئاً أبداً . . . ينظر فقط بعينه

« من تحت تحت » وأنا ألعب . . . وشاربه الكبير الأسود الملفوف

المنفوش يتحرك أحياناً ، ولكنه لا يقول شيئاً . . . ومتى رأيت شاربه

يتحرك ، أثبت في مكاني وأكاد أصرخ ، لولا أنني لا أجد صوتي . . .

فأسكت ، وأتسلل ببطء . بعيداً عن شاربه الخفيف . . .

وقبلتها . . . ورفعته فوق ذراعي ، وأنا أفكر ماذا أقول لها .

الصغيرة لم تر أحداً في أسرتنا له شارب ، حتى أبي أنا - جدها -

حليق الشارب . وأبوها كذلك وأنا أيضاً بالطبع ! والشوارب التي تراها

على وجوه الزوار عادية ، رفيعة أو مقصوصة ولكن يبدو أن للشارب

« الملفوف » كما تسميه : أو المعقوف المنفوش ، له وقع آخر . . .

ودبت في قلبي خفقة خوف بعيدة . . . بعيدة جداً . . . هل

لورثة دخل فيما أصاب البنت ؟

ووجدت نفسي أضحك وأنا أتذكر تلك « الورثة » أضحك

بصوت مرتفع . . . فوضعت البنت يدها تحت ذقني . وهي جالسة على ركبتني . وقالت :

— ماما . . ماما . . ماذا بضحكك ؟ . . .

ووجدت نفسي أقول لها :

— لأنك تخافين من شيء لا يخيف . يا صغيرتي . . . فهذا الشارب الملفوف المنموش . ليس إلا « باروكة » . . . يضعها بعض الرجال للزينة . . .

— زينة ؟ . . غير معقول يا ماما !

— وهل كل الباروكات التي تضعها السيدات على رؤوسهن . كالطرطور . أو الحرشوف . زينة معقولة دائماً ؟ . . .

— وهل يخلعها حين ينام ؟

— ربما !

— ويكويها عند الكوافير ؟

— جائر

وانصرفت الصغيرة إلى مشاهدة برنامج في التليفزيون ، وتركتني لسكينة المساء . . وللدكري التي أضحككتني عن أثر الوراثة في خوفها من شارب « عم عزام » . . الذي حولته كذبتى البيضاء إلى مجرد باروكة . . .

ترى ماذا يقول « عم عزام » هذا لودري بما قلته لصغيرتي ؟ . . . وقفز إلى ذهني منظر « زهراء » وهي تقف أمام هذا العملاق

الصعيدى ، بقامتها التى لا تزيد على ثلاثة أشبار ، وتسأله بمنتهى الجحد .

— هل تخلع شاربك يا عم عزام قبل أن تنام ؟

وأغربت فى الضحك

ولكنى توقفت فجأة ، وأنا أسأل نفسى :

— أليس ذلك الشارب المعقوف الآخر : الذى ربما ورثت ابنتى

عنى الخوف منه كان أيضاً أشبه بال

وعضضت على شفتى السفلى . وتسالت إلى الشرفة مرة أخرى .

فى هذا المساء من أمسيات أمشير الدافئة . التى كانت جدتى تقول

إنها لحرارتها . غرت الأعرابى الساذج فباع حرامه قبل الأوان

ومع الليل عادت إلى أحاسيسى القديمة عن ذلك الشارب المعقوف

المنفوش الآخر قبل سبع سنين

كم كنت أخافه حقاً

كنت ووالد « زهراء » مازلنا فى دور « لعبة المساكة » التى كنا

نسميها « لعبة الحب » بمناورات اللقاء أحياناً ، والاحتجاب أحياناً

أخرى . . حسب التساهيل ، أو حسب ظروف البيت ، وفرص الانطلاق

إلى الشارع . . . ربما لشراء شئ . . وربما لزيارة الخياطة . . وربما

للمذاكرة عند هذه الزميلة وتلك . . . وكان ممدوح — والد « زهراء » —

هو القاسم المشترك الأعظم وراء كل هذه المعاذير

ولم يكن لنا فى ذلك الوقت ، منذ سبع سنين فى الضاحية التى

كانت يوماً ما هادئة قبل ذلك بعشرين سنة . ثم أخذت تكتظ وتعاني من آثار الانفجار السكاني في المدينة الكبرى - لم يعد لنا من ملاذ بعيد عن العيون . إلا الشوارع الصغيرة المحيطة بشوارع العروبة . على أطراف الضاحية . حيث الحديقة الكبيرة في وسط الطريق الواسع ، وحدائق الفيلات على الجانبين وكل شيء ما عدا هذا « هس هس » . . . حتى الطيور على الشجر . كانت تزعج وقار الشارع . وتتغاضى عن الأشباح المزدوجة ، التي تمرق ظلالها هنا وهناك ، في صمت أشبه بالتواضع

وفي موضع من ذلك الطريق . عند منعطف فيه لم يكن لنا بد من اجتيازه في الحيثة والذهاب . . . كانت تطالعنا فيلارمادية اللون ، ذات سقوف مائلة على طراز البيوت الريفية الإنجليزية ، وعلى بابها كشك من الخشب مما يقام للحراس الخصوصيين ، في جداره كوة كبيرة ، يطالعنا منها وجه عجيب الشكل

بعض الناس يربون لحاهم . . وبعض الناس يربون شواربهم . . وبعض الناس يربون الاثنين معاً . ولكن هذا الرجل كان يتميز بأنه يربي حاجبيه ! فهما شيثان بارزان كثيفان أشعثان ، من تحتتهما عينان كفوهتي بندقية « ميزر » ، في يد عات من قطاع الطريق ويربي أنفه المكور كالكوز ، في طرفه جميزة كبيرة ! . . ومن تحتها أضخم شارب معقوف منفوش . . كأنه قرنا كبش جبلي ، موطنه الأصلي لا أدري أين

لم يكن يقول شيئاً ، ولكن عينيه ، من تحت « تندة » حاجبيه المقرونيين

الأشعثين ، كانتا تتبعانا خطوة خطوة . . . وأنشارب ثابت لا يتحرك حتى لو وقف عليه الصقر . . . العينان فقط هما اللتان تتحركان . . . والحميزة . . . في طرف كوز الأنف ، تتحرك بحميرتها ، مبرزة المفارقة الشديدة مع سواد الحاجبين والشارب الذي يكاد طرفاه أن يتصلا بالحاجبين . ليصنعا دائرتين سوداوين شعشاوين ، حول هاتين المقلتين المتحركتين في رهبة ترتجف ذا الأوصال ! ولا سيما أوصال من طاردهما الخوف من الرقباء إلى أطراف الضاحية البعيدة .

ويتحول همسنا الدافئ إلى صمت متجمد ، حتى لتكاد قطرات أخريات الألفاظ التي تفوهنا بها ترتطم مرتدة إلى شفاهنا بلمس ثلجي . . . فتسرى القشعريرة فينا . . . وتبتعد الأكف المتشابكة من تلماء نفسها . . . وتبتعد أيضاً مواطئ أقدامنا . . . ونشعر بوقع نظراته كاللغزات كالوخزات . كبصقات الاحتقار على أفضيتنا ، لمسافة طويلة قبل أن نزدرد ريقنا إلى حلقنا الخافة . . . ونستأنف ما كنا فيه من حديث يعيد الدفء الهارب إلى أبداننا الشابة شيئاً فشيئاً . . .

كم مرة خضنا هذه التجربة ؟

لا أدري ! ربما أكثر من مائة مرة . . . ولكني أذكر بالضبط المرات السبع التي اجتزنا فيها ذلك الموضع ، من غير أن تطالعنا عيناه وحاجباه ، وشاربه المعقوف ، من كوة ذلك الكشك . . . لعلها كانت أمسيات راحته الأسبوعية . . . أو لعله كان داخل الفيلا ليأكل : : أو يشرب أو لا أدري ماذا . . . ! المهم أنني أذكر تلك المرات جيداً

لأننا كنا نتنفس الصعداء . . . وتتقارب خطانا تلقائياً . . . كأنما تعوض ما فاتنا في مرات التباعد الكثيرة . . . أو كأنها تخرج للكشك الخالي لسانها في فرحة عريضة . . .

كل هذه المرات أذكرها . ولكني أذكر أكثر منها تلك المرة الوحيدة الفريدة . . . التي كان فيها الشارب المعقوف هناك وليس هناك . . .

لم نشعر في ذلك المساء أننا نقرب من « حافة الخطر » في تلك الحرب الباردة . . . لأننا كنا مشغولين بالمشادة الساخنة . المشادة الأولى والكبرى في علاقتنا الطويلة الحميمة . كان ممدوح يزجر بألفاظ خشنة ، يطلقها من فمه بلا حساب . . . وكنت أفكر كيف يتسع هذا الفم الصغير لكل تلك « القلائيل » الهائلة . . .

لم يكن عتاباً بالضبط . . . كان غضباً يقرب بشدة من القطيعة . . . كان يظن في الآونة الأخيرة أنني أراوغ في لقائه ، كلما ضرب لي موعداً ، كي أستحبه على الدخول في « المصيدة » واعتبر ذلك إهانة لإخلاصه ، وتشككا في نياته ، ومحاولة نفعية ، لا تصدر إلا عن « رسم » و « تكتيك » و « تفكير بارد » . . . يستعجل المصلحة والضمانات ، ولا يقنع بالحب إلى أن تسمح له ظروفه بالتقدم في إطار مناسب

ولم يكن شيء من ذلك صحيحاً . . . ولكنها الظروف فعلاً ؛

جعلت تلبية تلك المواعيد مجازفة مكشوفة . وشاءت الصدفة أن تتكرر المعوقات . . .

ورجت أقسم له ، ولكنه لم يصدق . . . بل إن أيماناتي المتعاقبة كانت تزيد سعيي غضبه اضطراباً . . . وأخيراً وجدنا أنفسنا — من غير أن نشعر — أمام القيلال الروادية ، حينما أخرج خطاياتي إليه وصورى ، وربماها في وجهي . وقد وصل إلى قمة الغضب . . .

وفجأة طالعنا صوت مازح ماجن أجش فيه تواطؤ معربد :
— الله ! الله ! وهل عصافير اللجنة أيضاً تعرف الخصام ؟ وهل هذا كلام ؟ الأنس كان أنت ! والانسجام أنت ! والشك يحيي الغرام !

ونظرنا مذهولين ، فإذا الشارب المعقوف ، يهتز لأول مرة ويتكلم !
ومن فوقه فوهتا البندقية « الميزر » تومضان بالابتسام ! والحاجب الأشعث يهتز هزة خفيفة . . . تناسب المقام !

وتحولت ثورة ممدوح إلى عاصفة ضحك مججلة . . .

وصاح الشارب المعقوف ، بصوته الأجش الزائط :

— صافي يا لبن !

ونظر ممدوح إلى ، ونظرت إليه ، وامتزجت ضحكتي بدموعي ولم نعد نرى الشارب المعقوف . . .

ثورة العناد ارتدت إلى عكسها عند ممدوح — شأن كل الانفعاليين من أولئك الأطفال الكبار . . .

فى ليلتها بالذات أصر أن نذهب إلى أبي
ومن ليلتها لم نعد بحاجة إلى التزهدات المحتملة . .

وكلما تذكرناه . يقول لى ممدوح :

— من كان يظن . حين يرى ذلك الشارب الرهيب . أن تحته كل
ذلك الكنز من المرح الصافى . . والرقه . . والحنان . .
وصافحت أذنى ضحكة « زهراء » مستمتعة ببرنامج الأطفال . .
وتعيرت . كيف أقول لما إن تحت الشوارب الخيفة أحياناً قلوباً أرق
من النسيم . . .

طالت حيرتى ، ثم قلت لنفسى :

الأيام وحدها . . مثلما فعلت معى ، وبطريقتها الخاصة . ستعلمها .

ولنسیت کلّ شیء



أحست بحركة خلفها . وكان الصابون لم يزل عالقا بيديها
وقطرات من الدماء تلمطخ المئزر الأبيض الناصع . . فقد خرجت لتوها
من حجرة العمليات . إثر جراحة استنزفت جهدها . . جراحة من
أسهل الجراحات التي تقوم بها عدة مرات يومياً . . أما في هذه المرة
فقد تناول الطفل إفطاراً قبل حضوره إلى المستشفى ! ولم تخط علماً .
وإذا باختناق يصيبه يكاد يقضى عليه ! ولكن الله سلم ، بعد ساعة من
صراخ مع الموت وجهاً لوجه

واستدارت تتناول المنشقة من الممرضة . وإذا بعينيها تصطدمان
بعينين . لم تكد تراهما حتى أفلتت منها صرخة صغيرة مذعورة :

— أنت ! ؟

وتسمرت أقداماهما للمفاجأة ، ولم تكن تخطر لهما ببال ولم
يطل وقوفهما أكثر من ثوان ، ثم توجه هو فوراً لإسعاف مريض
أما هي ، فخلعت المئزر الملوث ، وفي خطى بطيئة اتجهت إلى غرفة
الأطباء للاستراحة ، بعد المجهود الشاق الذي بذلته

وعلى مهل ، راحت تحتسى فنجان الشاي بالنعناع ، الذي قدمه
لها عم نور ، العجوز الأسود المهزار ، عامل البوفيه ، الذي يعرف
جيداً متى وكيف يقدمه إليها ، مع الخنائة يرفع بعدها وجهه إلى السماء
قائلاً ، ويداه تبتهلان :

— إني أقدمه لك في « بيت العدل » : يا سيادة الدكتور . . .

ياست إيناس هانم . . .

ودائماً ينطق « الدكتور » بفتح الدال : ويعقبها باسمها مفخماً

بها . . . وكانت تضحك . وتتحفه بخمسة قروش من الفضة . .

فهذه العملة غالباً ما تخطى فيها فتحسبها قرشاً . . لذا ما إن تقع في

يدها حتى تحفظها لعم نور

أما في هذه المرة : فقد أحست بلغم ينفجر في داخلها . لجرد

سماعها بيت العدل . . . واتشحت المراثيات بالضباب . . وغام كل

شيء . والتفت الأصوات من حولها في طوايا الصمت . لتفسح لدقات

حزينة . راحت تطرق باب قلبها الخاجع وسط الركام . . .

عشرون عاماً ! . . !

وارتجفت . . كيف ؟ عشرون عاماً لم تقع عينها عليه ! . . كانت

في صباها الباكر زهرة يانعة وتفتحت عليه عينها . . . زميلان في الكلية

كانا . . متوقدين بشعله الحياة . . ينظمان معاً سيفونية رائعة . . .

طريق مستقبلهما الذي على وشك البداية . . فالتخرج بعد شهر . .

وسنة الامتياز للتحضير . . يعقبها زواج لا فصام بعده . . .

هكذا راحا يعدان العدة . . ويستقبلان الأمل معاً . . ويحفران

اسمها واسمه « إيناس وأنسى » على كل ما يمكن أن يرافقهما إلى حياتهما

الجديدة .

وفجأة سقط والدها تاركاً لها خمس أخوات ، كبراهن « هدى »

في الثانوية العامة . والصغرى . نجوى . طفلة تحبو . . وأما ثكلى . . .
 يترك شيئاً . . سوى معاش بسيط لا يكاد يكفي الكفاف . والعائلة من
 ستة أفراد . وهي السابعة . . ولم يترك أختا يعينها على تربية الصغار . والتفارق
 بينها وبين أختها التي تصغرها سبع سنوات . . وانهارت أحلامها :
 الواحد تذو الآخر . رغم أن أنسى كان دائماً بجانبها يشجعها . .
 ولكنها تعلم . . تعلم جيداً . أن أنسى وحيد والديه المدلل . . وأن به
 من الأنانية ما لا يمكن أن يسمح ذا برعاية أخواتها . . فهو يريد لها
 له وحده . كان هذا شرطه الأول . أن يسكننا بعيداً . بعيداً جداً عن
 العائلتين . . وأن ينفردا بحياتهما . ولا تدخل من أحد إلا للضرورة
 . . . أما ما تراه منه الآن من حذب وتشجيع . . ففقااعات لا تلبث
 أن تذوب . في الوقت المرسوم . . .

هل هي مستعدة أن تترك الأفواه الستة لرحمة القادر . وتذهب
 معه ؟

ولكن . . . هل هي مستعدة أيضاً أن تقتل قلبها . وتدمر حياتها ،
 لرعاية هذا الجيش ؟ وإلى متى ؟

الصدمة قاسية . . والأم الشكلى . . والأطفال الجزعون . . وهي
 الدعامة . والموئل الوحيد والملاذ لطفلات جنت عليهن الحياة . . .

وفي أول مرة استطاعت أن تتكلم مع أنسى في أمر مستقبلهما ،
 أحلته من وعده . وطلبت إليه أن يختار حياة تلائمة . . فهي لم تع
 تصلح له . . وأمامها واجب نحو أخوات هن أحوج إليها منه . . ولا بد
 أن تكون على مستوى الموقف ، حتى يستطعن الاعتماد على أنفسهن .

ونذتك فالشوط ضويل . ولا ترى له نهاية في الوقت الحاضر . . .

وبعينين فيهما كل أنانية العاشق قال :

— وماذا لا تعمل هدى بالتوجيهية لتساعدك ؟

وم تجب . نظرت إليه نظرة تحمل كل معاني النوم والحزن . . وأخيراً

أجابته :

— يا أنسى . لقد قررت . ولن أرجع عن قراري الذي اتخذته .

— ما الذي قررت ؟

— لن أتزوج ! . .

وكان صاعقة نزلت على يا فوخه وصاح :

— أخطميين حياتنا لكلمة تفوهت بها ؟ أربع سنوات ليست

بالشيء الكثير . . . وستخرج هدى بعدها ونستطيع الزواج .

بهزت رأسها في أسي عميق ، وهي تردد كأنما لنفسها :

— هدى طفلة . . . ولا أستطيع الاعتماد على تصرفاتها . . . وأمامي

أربع أخريات . . .

— وهل ستوقفين حياتك عليهن ؟ أهذا كلام ؟

وطأطأت رأسها في استسلام وأجابته :

— إنها ضريبة الحياة . لقد اقتطع والدي من قوتهن ليعلمني .

وعلى الآن أن أرد الجميل . . .

فصاح في غضب :

.. لن أدعك تفتلي نفسك من أجلهن .. !

وفي هذه المرة رعت عينيها . في عناد يعرفه فيها جيداً ، وقالت .

وهي تضغط على مخارج الكلمات في حزم :

- اذهب يا أنسى .. لن أتزوج !

عشرون عاماً ..

وتنهدت . وهي تراقب سحابات دخان السجارة في يدها .

تتلاوى أمامها . ثم تتبخّر في فضاء الحجرة الفسيحة :

هل كانت حياتها كسحابة دخان ؟

عشرون عاماً مضت . لم تفتر لحظة ولا وهنت عزيمتها .. في

شغل متواصل كانت تقضي يومها . لتتيح للصغيرات الأربع

حياة كريمة . سواء من مطالب المعيشة أو مطالب التعليم .. وللأم

الشكلى رضى وهدهوء بال .. كانت تضحى وهي راضية قريرة . وفي

المرات القليلة التي أعوزتها فيها الشجاعة .. كانت تستصرخ

عزيمتها ..

لا تنسى يوم تخرجت هدى في كلية التجارة . وأنتها على استحياء

تستأذنها في الزواج من زميل لها .. !

ونظرت إليها في عتب . لم تستطع العاشقة الصغيرة أن تبينه ..

فهى في شغل ، برغبتها الملحة ، عن الإحساس بما يعتمل في قلب

الأخت الكبيرة ، التي ضحت بحبها من أجلها .. ! ضحت بالزواج

كى تتخرج هى ، وتحمل معها المسؤولية .. ولكن الشابة صغيرة ..

وعودها ضرى . . . وإن كانت هى قد ضحّت بحياتها ، فليس معنى ذلك أن تضحى الباقيات مثلها . . . ولترك الصغيرة تنعم بحبها ، ويكفيها أن تفرح لفرحتها ولأغرس يدها . . .

— هذه بطولة لا يمكن أن تتوفر فى الرجال . . . ولو كان لهن أخ : لما حرم نفسه من طيبات الحياة ليسعدهن ، كما تفعل هى . . . إلهى بكرمها بابن الحلال . . .

هكذا كانت تسمع بأذنيها الكلمات تتناثر من حولها : من كل الأقارب . . . وتبتسم فى صمت . كان هذا الإطار يؤلفها . . . كوخز الإبر تحسه فى جسمها . أبدا لم ترتج لهذه التعليقات ولكن أين المفر . . . وما السبيل إلى دحض هذه الحرافات التى يتناقضونها . . . ؟ وتهز كتفيها ، وتدبر لهم ظهرها . . .

وتزوجت هدى . ومن بعدها تخرجت الصغيرات الثلاث . واحدة تلو الأخرى وتزوجن ! وكانت الأم والحق يقال — تتوسل إليها ألا ترفض من يتقدم لها . . . وكانوا كثيرين . . . وفى مراكز طيبة . . . ولكن قلبها كان قد أغلق تماما دون الزواج . . . كانت قريرة بحياتها ، وبما يتيح لها عملها من رضى نفسى . . .

ومدت يدها تطفى السيجارة ، حينما أحست بها تلسع أصابعها . . . وفى هذه اللحظة دخل أنسى . . . وجلس على المقعد قبالتها ، وتأملته عشرون عاما . . . ! لكم تغير . . . !

قادم من بعيد ، تنطبع صورته فى صفحة نهر ، وقد وقف يتأمل

النهر على الشط . . .

وارتجفت زاوية فمها ارتجافة لا تكاد ترى ، وهي تسمع صوته :

— ها قد دارت الأيام . . . نددت إلى هنا بسبب مرض زميلنا

فتحي .

— أخصائي باطنة ؟

وهز رأسه . وفي وجهه . الذي ازادت بدانته كثيراً نظرة — من تحت

أجفانه التي أضحت غليظة — يختلط فيها أكثر من معنى وأكثر

من سؤال . . .

ولكن . أبكف النهر عن الجريان ؟

علموها في الجغرافيا أن النهر لا يرقد أتراه يملك أن يقف ؟

الناس تغدو وتروح . وتقف أحيانا وتنظر إلى الوراء . . . أما النهر . . .

وقبل أن تجيبه عن سؤال غامض عن الأحوال . دخلت الممرضة على

عجل . تخبرها أن الطفل الذي أجريت له الجراحة أفاق وحالته غير

مرضية . .

وانسيت كل شيء واندفعت تجرى

شمان عیوت



أقبل الليل . وفي صمته الأسر استسلم إسماعيل للكبرى . . دقائق ؟
لا يدري ! ربما ثوان . ثوان معدودات . ! فتح عينيه على أثرها يلهث
كأنما أحد يطارده ! يقتنى أثره ! مع أنه إنسان مسالم . عاش حياته بعيداً
عن القرية . في المدينة الكبرى . وتلقى تعليمه في مدارسها . ثم في جامعتها . .
وها هو ذا الآن ينتظر خطاب التعيين . .

وتقلب في فراشه . قطرات من العرق تبلل جبينه . . برودة تسرى
في أطرافه . . والجو خائق . ونشطت أفكاره . . عقله في صحو تام . . !
الحجرة خالكة الظلام . . لا بصيص يكسر حدة هذا الغول المرعب .
الذي ييسط ظله على كل شيء حوله . .

وتجسم كل شيء أمامه . . والليل كافر . . لا يرحم . . وتحول فراغ
الحجرة إلى عيون . عيون محماقة تنطلع إليه في فضول . . في تساؤل . .
بل وفي اهتمام أيضاً ! . .

ماذا ينتظر ؟ ! عشرون عاماً مضت . . عشرون عاماً في انتظار ممض . .
ماذا ينتظر ، وكان الأجدر به أن ينهى المسألة من أول ما اشتد عوده ،
وأصبح قادراً على حمل السلاح ؟ !

ومن خلفه أحس العيون كالحناجر تسلط على ظهره المستكين . .
وكأنما العيون تنطق :

— شاب « خرع » . . تربية البندر والمدارس :: حسنين لم ينبج

ولدا .. أنجب بنتين : هنية وإسماعيل ...! يا ضيعة شبابك يا حستين !
 هكذا كانت تنطق العيون الساخرة الحاقدة ، وهي تتطلع إليه في
 صمت ... بل هكذا كانت نظرة الرجل الذي رآه يجالس أمه ، حينما
 عاد من الخارج .. ودار بينهما أغرب حوار . بعد أن قدمته إليه أمه
 باسم . محروس الكردي . ونظرات فارية تنطلق من عينيه :
 — القرية تنتظرك يا إسماعيل ..

كان يتكلم بصوت هادئ ، إلا أن الشحنة التي وراء هذه الألفاظ
 لم تخف على إسماعيل ..

وتسمرت قدماه ، وهو ينقل البصر من الرجل إلى أمه ، ومنها إليه ...
 وهي جالسة كالفأر الضعيف أمام قط متوحش .. عاقدة أصابعها في
 حجرها ، في استسلام عاجز .. مسمرة العينين على نقطة في نقوش
 السجادة المنمنمة الحواشي ...

محروس الكردي . ابن عم والده . لم يره في حياته إلا مرة واحدة
 فقط . كانت قبل أن يبرح القرية مع أمه إلى المدينة ، بعد مقتل والده
 في ثار .. حمله على كتفه وصوب إليه نظرة ظلت تطارده سنوات ..
 وكلمات كالشواظ نخرج من بين شفثيه :

— ستعود يوماً إلى القرية يا إسماعيل لتثار لأبيك !..

أبدأ لم تفصح أمه طوال هذه السنوات عن سبب مقتل أبيه ..
 كلما فتح الموضوع أسرع بالمرأوغة .. وقد عادت بعد مقتل زوجها ،
 مع ابنها إسماعيل وابنتها هنية ، لتعيش وسط أهلها في البندر .

ولكن الثأر ثار .. وأهل الصعيد لا يغتفرون الجبن .. وأن يترك
 الابن دم أبيه يهدر هكذا . مسألة لها حساب آخر .. والرجل كان يتكلم
 بحرقه .. وتناول معهم طعام الغداء .. وبعد الظهر انضم إليه رجال آخرون -
 ثلاثة . ثلاثة أشداء .. وكان الحديث غاية في الغرابة على ابن البندر .
 الذى لم تطأ قدمه أرض الصعيد منذ طفولته .. فهم يتفقون معه على يوم
 بالضبط ، يذهب فيه إلى القرية . وسيعدون له كل شيء : السلاح والعباءة .
 وكل ما يلزمه . وقبل كل شيء ، سيقدمون إليه الضحية ! الشخص الذى
 وقع عليه الاختيار ! وسيكون ذلك فى حفل عشاء يقيمونه ! وسيرتبون
 هم المسألة . بحيث يحجز هذا الشخص حتى يتفرض السامر .. وعند
 عودته ، يكون هو منتظراً وسط الذرة ، فيطبخه بالعيار ، ويعود فوراً ،
 ولن يكتشف أمره الجبن الأحمر

- معنى هذا أن الشخص الذى ستقيمون له الوليمة ، والذى وقع
 عليه الاختيار ، ليس بينه وبينكم أى حقد ! بل هو ضحية مثلى ،
 ثأر قديم لا يدري عنه شيئاً ؟!

وتحولت إليه العيون الثمان . عيون كأنها قدت من نار : : عيون
 حس لنظراتها وقع السياط على وجهه .. وصاح محروس :
 - أنفهم من كلامك أنك تحجم عن الثأر لأبيك ؟
 فأجاب بنبرة عرجاء :

- ألم تأخذ العدالة مجراها ؟

وفجأة . اهتزت الأرض لقيام الرجال الأربعة مرة واحدة . : : .

وارتطمت ساقه بشيء .. صدمة موجعة .. ولم يستطع كتمان صرخة
ألم ...

وانثنى على ساقه يفحصها . وعيناه المذهولتان تمسحان الظلام من
حوله . . . وهو يرتجف رعباً

عمود السرير الحديدى .. ساقه ارتطمت به
وجلس يفرك عينيه .. ويعيد التحديق فيما حوله .. وهو يتصبب
عرقاً ...

ومن أعماقه خرجت زفرة ارتياح .. وبصق من فمه المارارة التى تجمعت ..
بصقها بحنق .. كأنه يريد أن يطغى الشواظ المنطلق من ثمان عيون
وانفرج الباب عن أمه ، مشعثة الشعر .. ومدت ذراعها فى قلق
ولحفة .. بعد أن ضغطت على زر النور ..

— إسماعيل .. مالك ؟ سمعتك تصرخ ..
وثنى رجليه ، مفسحاً لها مكاناً على طرف الفراش .
— لا شيء يا أمى . . . رأيت حلماً فظيماً . فظيماً جداً ...
ونظرت إليه متسائلة ، وقد زاد قطوبها :

— ... كانت عيناه بريشتين .. وديعتين ، كأنهما يمامتان ... وظلت
العيون الثمان تلاحقنى وتحرقنى فى صدرى بنظراتها . . . « كن رجلاً
يا إسماعيل .. كن رجلاً ... » وضغطت على الزناد ولا أدري يا أمى
أينا كان أشد صراخاً ، أنا ... أو هو ...

وأغضى ببصره ومدت يدها المعروقة تربت على ركبته فى صمت ..

— لماذا خلقتني الله رجلاً يا أمي ...!

وتحولت نظرتها من الحنان إلى العتاب ... يمازجه الألم ..

— خسارة تربيته فيك يا إسماعيل ... خسارة عمرى الذى أضاعته لتكون

سيد الرجال ...

ورمقتها في ارتجاف وحيرة :

— سيد الرجال يا أمي ؟ .. انظري كيف يتصبب العرق منى حلم

وأبته ... حاولت فيه أن أفعل ما يفعله الرجال ...!

وزادت نظرتها عتاباً ، كأنها أصيبت بجرح غائر .. :

— التزمت الصمت يا إسماعيل تاركة لك حرية الاختيار والتصرف

وحدك .. وأنا طامعة أنك ستدرك الحقيقة من تلقاء نفسك .. وأن تربيته

فيك لم تذهب سدى ... ولكن يبدو أنك لم تزل ناقص التمييز ...

واشتدت قبضتها على ركبته ، كأنها تريد أن تغرس أصابعها مع

كلماتها في لحمه :

— الرجل شيء والبهيم شيء آخر ... والفرق بينهما هو الفرق بين

الضمير ... والتوحش ... الفرق بينهما يشهد عليه عرق الفزع من وحشية

البهائم ، التي أرادوا أن يفرضوها عليك باسم الرجولة ولكنى — أنا

المرأة — كنت أدري بالرجولة منهم ... وجعلتك تعطى شريعة الغابة ظهرك ...

ونظر إليها نظرة طويلة أسيانة ... وشيئاً فشيئاً شاعت البسمة المشرقة

في أساريره

السردايت



— تأخرت يا ماما ...

وتقلبت في الفراش . وفتحت عينيها . وعلى ابتسامته العذبة قفزت
من السرير إليه ... إلى فراشه الذي لا يبعد عن سريرها سوى خطوات ...
وطبعت على خديه قبلة الصباح . وعيناها على المنبه .

الثامنة إلا الربع !

يا خبر ! كيف غلبها النوم إلى الآن ؟

واستدارت إلى ابنها متسائلة :

— ألم يرن جرس المنبه يا رامز ؟

— رن يا ماما . وانتظرت أن تستيقظي ككل يوم ولكنك لم تفعلي ،

فناديتك ..

كانت تحادثه ، وهي ترفعه بين ذراعيها ، لتأخذه إلى الحمام ككل
صباح . وصرخت تسأل الشغالة :

— لماذا لم توقظيني حينما تأخرت ؟! هل أفطرت الطفلين ؟ .. وهل

نزلا مع والدهما إلى المدرسة ؟ .. كيف تركتموني هكذا ؟ !

وأجابتها الشغالة :

— سيدى قال اتركها حتى تستيقظ .

— عجباً ! ألا يعلم أن جرس المدرسة يدق في الثامنة ! ؟ وعلى أن

حمم رامز وأفطره قبل نزولي ؟ ! ..

— ربما خطر له أنك اليوم في إجازة ؟
 — ما هذا التخريف ! .. أسرعى بإعداد الإفطار لرامز ..
 — كل شيء .. على المائدة ...
 ورفع رامز عينيه إلى أمه متسائلاً ، وهي تضع الطعام في فمه :
 — ماذا قال لك الطبيب أمس يا ماما ؟ هل سأعود للذهاب إلى
 المدرسة ؟

وغضت بصرها . حتى لا يلتقي ببصره . وقالت : وقد أحست بجرعة
 الشاي تقف في حلقها :

— قريباً يا حبيبي . . .
 وسكت . وكانت عادته أن يسكت كلما لمح على وجه أمه حزناً :
 فذكاؤه وحساسيته يمنعه من إيلاها .
 وأجلسته في البهو . وطلبت من الشغالة ألا تغفل عنه لحظة . ووضعت
 بين يديه كتابه المفضل . وهرولت ترتدى ملابسها في دقائق . ثم طبعت
 على وجهه ويديه قبلات عديدة ، وخرجت تجرى .

تسع سنوات . عمر « رامز » . ولم تترك طبيباً إلا وعرضته عليه .
 في السادسة من عمره . كان يمشى ويتكلم ، ولكن بصعوبة . صعوبة
 لم تمنعها من إرساله إلى المدرسة . ولكن الأطفال شياطين . . .
 لا قلب لهم . اتخذوا منه ملهاة . وراحوا يداعبونه مداعبات ثقيلة : يضحكون
 عليه حين يتكلم ! ويقذفونه بينهم حينما يتعثر في مشيته ! . ولم ينفع
 معهم نصيح : : ولا إرشاد . ولا تهديد من الناظرة ، حتى وصل الأمر

بها إلى عقابهم دون جدوى . فاضطرت أن تنبهها إلى خطورة وجوده :
وسط أطفال لا عقل لهم ولا قلب ! . واضطرت هي بدورها أن تخرجه
من المدرسة : بعد شهور حافلة ، أصابه فيها ما أصابه . دون أن يشكو
لأمه شيئاً !

قال لها الطبيب « أصابه ضمور من كثرة ما تعاطيت من عقاقير
أثناء الحمل به لإنزاله ! » وكان في الثانية من عمره بنمو رأسه نمواً طبيعياً ،
أما جسمه فهزيل ، ويداه ورجلاه ضامرة ...

وقيل لها إن طبيياً أجنبياً ، مختصاً في العظام ، سوف يأتي خلال
أيام . وأسرعت تحجز له مكاناً . وكشف عليه الطبيب . وأعطاهها علاجاً ،
استطاع أن ينمي عضلات الصغير . ولم تمض شهور . حتى بدأ
يقف على قدميه ، ويخطو خطوات . وواتاها الأمل في أن يصبح طفلاً
عادياً ، ويلعب مع أخويه ...

ولكنه أبداً لم يصبح طفلاً عادياً ! حتى إنه في السادسة من عمره
لم يكن يستطيع أن يتقى هذر الأطفال ، وكان يقع ويقوم في اليوم
عشرات المرات ...

واضطرت أن تلحقه بمدرسة خاصة بأمثاله .. ذوى العاهات ...
ولكن حتى هذه أيضاً لم تستطع أن تتركه فيها طويلاً ! . لماذا ؟

لأن حالته كانت إلى تدهور : لا إلى تحسن . ولأن الطبيب
قال لها :

— لا فائدة ... يجب أن تكونى شجاعة !

ويطبعها كانت شجاعة ...

« ابتسام » . هكذا أسمتها والدتها . وكأنما كانت تقرأ فى لوح القدر ما سوف تكون عليه ابنتها . فهى مبتسمة أبداً . يزيد فى جمال ابتسامها تلك « الزنفتان » اللتان تتوسطان خديها ، وذلك اللمعان الأخاذ يشع من سواد عينيها الفاحم ... ! لا ... !

[إذا أنبها والدها ، تتساقط دموعها فوق ابتسامها . ! إذا أدركها المرض ، وعادتها صديقاتها ، كانت ابتسامها أسبق إليهن من توجعها . ! إذا سقطت على الأرض — وهى طفلة — قامت تبكى وتضحك فى آن واحد .. ! ولم تكن ابتسامة فقط تلك التى يشرق بها وجهها دائماً ، بل هى ضحكها اللطيفة التى لم تكن تفارقها أينما حلت . يزيد لها لطفاً ورقة خفة ظلها ، ودماثة خلقها ، حتى إن صديقاتها أطلقن عليها « الضاحكة » ...

أينما حلت ، لقب « الضاحكة » يسبقها ... وتظل تضحك وتضحك وتروى النكات ، وتتفكه مع هذه وتلك ... محبوبة هى . لا يخلو مكان من وجودها ...

تعبد الأطفال أينما وجدوا . فى الطريق — إذا رأت طفلاً — ترفعه بين يديها وتقبله ! فى الترام — وهى ذاهبة إلى معهدها — لا تدع طفلاً على حجر أمه ، بل تظل وراءه حتى تأخذه على حجرها ، تهدهده وتداعبه ... ! أما أطفال الأصدقاء والأقارب ، فلها منهم أحياء فى كل بيت ، يهرعون

إلى حضنها . ويتعلقون برقبتها . وتظل تلعب وتضحك معهم ...
لا تتعب .. ولا تمل ...

كانت أمًا لأختيها أكثر من أمهما . فقد ولدتا على يديها : وربتهما
في حضنها .. بين الواحدة والأخرى أقل من عام . مجنونة هي بالطفل
حينما يولد .. تحب رائحته . وتحب كل ما يتعلق به ...

أقسمت أن تنجب عشرة أطفال . ولكنها بعد ولادة الطفل الثاني
تراجعت عن قسمها .. فولادتهما كانت من الصعوبة بحيث أفزعها مجرد
ذكر الحمل ...

وجاء الحمل على غير إرادتها . ومن الشهر الأول راحت تجرب كل
ما تشير به عليها الصديقات . من أعمال هي في الحقيقة تشكل خطورة
فطرية عليها وعلى الجنين ... وحينما بلغت شهرها الرابع . رفض طبيها
لإجراء أى جراحة لها ، لضعف صحتها ، وعدم تحملها مزيداً من الإرهاق .
وولد رامت . ولادة طبيعية : طفلاً طبيعياً جميلاً . وانفجر كل
حبها الكامن للأطفال : في صورة خوف وإعزاز وحذب على الصغير ،
يزيد في فعاليته إحساسها بالذنب مما فعلته معه ، وهو في أحشائها ...
واجتاز شهره الأول في سلام . ولكن تغيرات بدأت تظهر عليه
بدخوله في شهره الثاني . فجسمه بطيء النمو جداً .. لم يكد يتقدم خطوة
عن يوم ولادته .! أما رأسه فيكبر بشكل غير طبيعي ...

— هذه نتيجة طبيعية لما كنت تتعاطينه أثناء الحمل ..

هكذا قال لها الأطباء . الأطباء الذين عرضته عليهم مرة بعد الأخرى .

وهكذا راحت تتعلق بالصغير . تعلق المجنون . كلما أبدى طبيب إشارة
يأس في نموه نمواً طبيعياً ...

وعاشت في رعب من أن ينمو الطفل كسيحاً ، أو مشوهاً ..
لم تكن تدع خدمته لأحد سواها . قبدها كل أمره . لم تتركه للدادة
كأخويه . بل مهما كانت درجة مشغوليتها ، فله الأولوية في كل شيء ...
ومع كل يوم كانت أعراض جديدة تظهر عليه - ولم تيأس ، فمرة
تجد الأمل عند بعض الأطباء .. ومرات تجد اليأس ...

ومع كل هذه الميشتات المبكيات ، هل فقدت ابتسامتها ؟
كلا ! فقلبها يدمى . ودموعها تتساقط . حتى لتحسبها تحرق أحشاءها
قبل خديها . ومع ذلك فابتسامتها هي هي ! مع ضحك لا ينقطع ..!
أبدأ لم تشك لأحد ! أبدأ لم تعرف زميلاتاً مأساتها .. بل هي ابتسام .
الضاحكة ! المرحة ! في نظرهم ، ونظر كل من يعرفها ..

كان ذكياً للدرجة مذهلة ! تشع من عينيه الحميلتين أمارات توقد
فذا . ! وكانت تلقنه مواد الدراسة سنة بسنة .. حتى إنه سبق من في سنه
من الأطفال بمراحل . . !

وحضر الطبيب الأجنبي الذي رآه في سنواته الأولى ، فأسرعت بعرضه
عليه . وقال كلمته الفاصلة .

- ضمور

ثم رفع عينيه إليها . . عينين جادتين . ووضع يداً على كتفها ،
ورفع أصبع اليد الأخرى إلى أعلى وقال :

— إذا كان هناك أى أمل . فمن عنده ...:

ورفعته على كتفها ، وخرجت من عند الطبيب : والطريق أمامها
سرداب مظلم لا ترى له نهاية

وفى الصباح ، لم تستطع القيام من فراشها : بعد ليلة قضتها تحت
ضغط كوابيس مفرعة . لم تصح إلا على صوته يناديها . .

وخرجت تجرى إلى مدرستها . ولم تصل إلا بعد الحرس بربع ساعة .
وفى الفسحة ، التفت حولها المدرسات يسألنها عن سبب تأخرها ،
وهى الحريصة على المواعيد .. وكان ردها نكات وضحكات ومرحاً
لا حد له !

وصاحت زميلتها سلوى :

— يا بختك يا ابتسام ! ما من مرة أراك إلا ضاحكة مستبشرة ،
لا هموم لديك ، ولا شيء يقلقلك ...

وبمجرد سماعها كلمات سلوى ، التفتت إليها وكأنما سكين قرت
فى أحشائها ... ثم انفجرت فى بكاء مر ، هز جسمها كله ...:
والتفتت الزميلات حولها ، متأذيات متفجعات لحالها . . وجعلت
سلوى تسب نفسها ...:

ولم يدم هذا التدفق الانفعالى الطامى إلا دقيقة واحدة .. أو ربما أقل
من دقيقة . وفجأة أخذت عضلات وجهها تتحول من الانقباض إلى
الانفتاح ، وما لبثت لإشراقة الابتسام أن زاحمت الدموع على وجنتيها ،
حتى ظهرت « نونتها » ، ورفعت أهدابها تنقل نظرتها الضاحكة بين

وجومهن وهى تقول :

— أرايتن إلى البكاء كم هو سهل ؟

وتحولت لطفهن عليها إلى ذهول وهى تستطرد :

— كلكن صدقتن . كلكن بلا استثناء ! كى تعرفن أنى لا أضحك

دائماً عجزاً عن البكاء ... ولكن المسألة كما ترين مسألة « مزاج » ..

ووثبت واقفة وهى تضحك من وجومهن ، وما لبث ان انفجرون

ضاحكات .

ومن يومها ، كلما خطرت بياهن ، يهززن رؤوسهن ويقلن :

— ابتسام هذه آه منها ! .. لا تفرغ لها ألاعيب .. !

لحظة صبح



انحنى يضع قبلة على صفحة وجهها ، وهو يودعها لمهمة لن تستغرق سوى يومين . ورفعت إليه عينيها في إعزاز . بل في حب يصل إلى حد الوله . فالسنوات الخمس عشرة التي قضياها معاً ، لم تستطع أن تخمد لهيب الحب ، الذي بدأ قبل زواجهما بأربع سنوات .. ولم تستطع أيضاً أن تجعله يهمل بيته ، ولو ليوم واحد . بل هو الزوج المحب الغيور ... أما الأولاد الثلاثة ، الذين أنجبهم خلال هذه المدة ، فقد زادوا الرباط بينهما وثوقاً ...

وتأملته وهو يخطو نحو الباب . وشيق القامة . موفور الصحة . وتنهدت وهو يبعث إليها قبلة على أطراف أصابعه ، ويغيب في منعطف الدرج ..

كطفلين يعيشان حيهما ... سعيدين بحياة لم يكدر صفوها شيء ذو بال .. يحسدهما الأهل قبل الصحاب .. فهي وإن لم تكن جميلة ذلك الجمال الصارخ ، إلا أنها على سمت ومهابة .. محترمة في عملها ومعززة في بيتها ...

ونظت خطوتين . وأغلقت الباب . وتفرست فيما حولها . كل ما في بيتها يذكرها بحلاوة العشرة .. فما من شيء إلا وله ذكرى جميلة في نفسها . فهذا المقعد كانا يجلسان عليه معاً ، في بداية حياتهما الزوجية .. ويصر « عارف » زوجها على أن يحتسب القهوة من فنجان واحد . قهوة العصر

وابتسمت . . يا لها من أيام .. إنه لا ينسى المناسبات ، فمع كل عيد
زواج يفضل أن يقضياه معاً ، بمفردهما . لا يزعهما ضيف ولا أولاد ،
فيرسل الأولاد إلى بيت جدهم .. ويغلق البيت عليهما ، وكأنهما عروسان
في أول أيامهما ... بل في يومهما الأول ...

وأحست بالعرفان ، وهي تقف على باب حجرة النوم فاخرة الأثاث ..
قال لها يوم انتقياها معاً : « تذكرى أن هذه الحجرة سنقضى فيها نصف
عمرينا . . يجب أن تكون ذا طابع خاص .. طابع ينفرد بذوقى وذوقك ...
فكل قطعة من أثاثها ستكون بمثابة النبضة فى عروقنا .. فلا نراها إلا
ونستشعر سريان الدم فى جسمنا .. فقد جمعتنا على حب بعد طول
انتظار ... »

وبيدى تنفسان الحنان ، راحت تسوى الفراش . وتضع كل شىء
فى مكانه . : وأنشودة خفيفة تتغنى بمقاطعها بين شفتيها ...
يقولون إن الزواج نهاية الحب الجارف ، وبداية العشرة والاتزان ..
أما أنا ، فأقول إن الزواج بداية الحب الجارف مع العشرة والاتزان ...
وفى غمرة سعادتها ، تذكرت أن حجرة المكتب يجب أن تنظفها
وتغلقها قبل أن يأتى الأولاد . فالخادم اليوم فى إجازة . وهى فضلت
ألا تذهب اليوم لتوعك ألم بها . لم تخبر « عارف » ، حتى لا يؤجل سفره . :
فهما كان عمله مهماً ، كانت هى دائماً أهم عنده منه

يا له من رجل .. بل ياله من حبيب
حجرة المكتب دائماً تنظف وتغلق فوراً . فالأولاد شياطين لا يتركون

شيئاً في موضعه .. وأوراقه مهمة .. وكل قصاصة لها نفع عنده .. وأنخادم يعرف ذلك .. أما الأولاد .

كل شيء في البيت كان ملك يمينها : ثقموده . ملابسه .. أدواته — إلا درج المكتب . دائماً مفتاحه معه . في جيب سترته . بمقروده . أبداً لا يضعه في سلسلة مفاتيحه . وكم سألته : « لماذا هذا الدرج بالذات تحجب ما به عن عيني ؟ » وكان يعتذر أن به أشياء تخص عمله : والأولاد شياطين . ولا يرضيك أن يعبت بأهم أوراق ...
أمين هو في كل شيء : في بيته .. مع أولاده .. مع زوجته .. حتى أوراقه تعتبر شيئاً محرماً لا تمتد إليها يد غير يده .

وكانت تحترم إرادته . وتكبر فيه الإحساس المفرط بالمسؤولية . فيوم أن كانت تتغيب عن عملها بلا سبب وجيه . كان يحثها على الذهاب ويبين لها مقدار ما يعود على عملها من خسارة إذا هي تهاونت فيه . وكانت تطيعه وتعتز بآرائه وتفخر بها

وفي خطوة الواصل ، دخلت حجرة مكتبه لتنظفها . واتجهت إلى الأوراق المبعثرة فوق المكتب تجمعها في نحفظ شديد ، وتضعها تحت الثقالة حتى لا تطير منها ورقة ...

لم يحدث أن ترك أوراقه مبعثرة هكذا . ! ماذا حدث له اليوم ؟
لأنه تأخر عن مواعده . . ؟

كانت تكلم نفسها ، وهي تجمع الأوراق المبعثرة في حذر شديد ،

خوفاً من ورقة تتوه منها .. وفجأة وقع نظرها على مفتاح صغير بين الأوراق ..

مفتاح مكتبه ! نسيه ! سقط منه سهواً وسط الأوراق ...
وتأملت المفتاح في يدها كأنما لم تر مفتاحاً في حياتها ... وراودتها
فكرة :

هل تفتح الدرج لترى إلى أى حد أهمية هذه الأوراق ؟ ولكن
ما شأنها هي بأوراقه الخاصة ، ما دام لا يريد أن تراها ... أليست
أوراق عمل ؟ إذن ما سر حرصه الشديد في إخفائها عنها ؟ وهل بلغت
من الأمية ألا تفهم ما بها . ؟

تجاذبتها عوامل شتى ، وهي تقلب بصرها بين المفتاح والدرج ،
وكأنما سمرت في مكانها ، يتقاذفها الإقدام والإحجام ... وتوقف الكون
عن الدوران .. والرغبة في كشف الستار عن المحرم تشدها إلى الدرج ..
وتدفعها دفعاً ألى فتحه .. وتصم أذنيها عن كل اعتراض أو تراجع ...
ستطلع بعينيها فقط وتغلقه . لن تمد يدها إلى محتوياته .. نظرة
واحدة فقط ، وترد الطرف في الحال .. لماذا هذه الأوراق بالذات ؟
وهو لم يخف عنها شيئاً بل كل أسرارها يطلعها عليها ؟ !

وفي خلال حديثها مع نفسها فتحت الدرج ..
واصطدمت عيناها بمجموعة خطابات ! لم يكن بالدرج أوراق
حكومية : ! لا شيء سوى رزمة من الخطابات الملونة فاح منها عطر
هادئ ولكنه نفاذ .. !

وفتحت عينيها وفمها . ولم تشعر بنفسها وهي تهبط على مقعد المكتب
أمام الدرج وتمسك بأحد الخطابات وتففضه .
يا لذل المصيبة . خطاب غرامى تصف فيه صاحبه لمساته وعناقه
وهمساته !..!

وأبعته بثان وثالث . كلها تحوى ردوداً على خطابات وصلتها منه ..
ومبلغ السعادة التى يرتشقانها معاً .. والشوق الذى تكايدته وهى بعيدة
عنه ..!!

من تكون يا ترى هذه العاشقة الوهانة ؟ ! من تكون تلك التى يعايشها
معها فى آن واحد ، دون أن تبدر منه بادرة ثم على ما يختلج به قلبه
من حب محرم ؟

ولم يمهلهما الزمن . بل لم تمهلها اللحظة . اصطدمت يدها بمظروف
ضخم فأمسكته بين يديها وفتحته .
مجموعة من الصور !

وكانت الصدمة الثانية أشد هولاً من الأولى ... أعز صاحباتها !
الصديقة الوحيدة التى تفرع إليها إذا ألم بها ما يكرهها ... مستودع
أسرارها التى تضمن بها على زوجها خشية إزعاجه

وكالمصاب بالحمى كانت يداها ترتجفان وهى تقلب الصور فى
عصبية ونوتر ... وقلها يخفق خفقان طائر جريح أصيب بطلقة صائد
ماهر فى موضع قاتل

أوضاع مختلفة : فى حجرة الطعام وهى تأكل .. وفى حجرة الصالون ،

مضضجة على الأريكة فى أوضاع مثيرة ... وفى المطبخ ، وهى تصنع
القهوة ! . وفى حجرة النوم على سريرها ! فوق نبض قلبها ! وحياتها !
وسنوات عمرها التى اختزلت فى هذه اللحظة وانطفأت جذوتها ... ! وخلف
كل صورة كلمات تعبر عن اللحظة .. والمناسبة .. وهمسة من القلب
إلى القلب

متى حدث كل ذلك ؟ ! وفى أى وقت ؟ ! وكيف ؟ ! وأين كانت
هى ؟ !

أسئلة راحت تتزاحم على فكرها المكدود . كتزاحم القطط على
حمامة مهيضة الجناح تنهشها فى شره وحشى ...
ولم تتركها اللحظة فى هذه المرة أيضاً لهواجسها ، بل لاحقها بالرد .
كلمات كتبت خلف إحدى الصور ، تصف فيها كاتبها كيف روعها
نبأ مرضه الأخير ، بينما هى عاجزة عن رؤيته .. ثم تصف لحظة اللقاء
خلال فترة وجيزة غابتها عن البيت

مرضه الأخير ؟ مرضه الأخير ؟ !

كان هذا منذ عام مضى ...

يا للعجب ! لم يحدث مرة أن لمحت عليه أى بادرة تنم على الخيانة !
لم يحدث مرة أن باغتهما معاً !! كل ذلك كان يجرى فى بيتها .. وعلى
الأثاث الذى انتقياه معاً . ! وفى حجرة النوم .. وعلى سريرها . !
وهو هو لم يتغير . ! ثلاث سنوات منذ بدأت العلاقة .. هكذا فهمت من
خلال قراءتها للخطابات ... ومنذ عام مضى انقطعت ، لأنها تزوجت

وسعيدة مع زوجها ...!

من يدري ! لعلهما عادا سيرتهما الأولى . . . فما السعادة ؟
وما الإخلاص ؟ وما الحب ؟ كلمات أصبحت لا تحمل أى معنى ...
وإلا كيف يمكن أن يصدق هذا ! رجل يعيش حياتين فى وقت واحد .
كل منهما حافلة بالحب ! والإخلاص ! والتضحية ! حياتين عامرتين
بشئى الأحاسيس والعواطف ! دون أن يخطئ فى حساب كل خطوة
يخطوها ! أى مثل مطبوع هذا الرجل ! ؟ ما العمل الآن ؟ وكيف التصرف ؟
ويحذر شديد . وضعت كل شئ فى مكانه . وأغلقت الدرج ،
ووضعت المفتاح فوق المكتب ، وبعثرت الأوراق التى لملمتها فوقه كما
كانت ، حتى لا يفطن إلى أنها رأت المفتاح ..

وفى البهو جلست تستجمع شتات ذهنها ، حتى تستطيع أن تفكر
فى هدوء هـ

وفجأة أحست بمفتاح يدور فى الباب ، وإذا به يدخل مهرولا ،
قائلا وهو يندفع إلى حجرة المكتب :
— نسيت شيئا مهماً جداً ...

وبعد لحظة خرج من الحجرة ليأخذها — بدون مناسبة — بين
أحضانه ، ويضغطها إلى صدره ، ويقبلها بعنف ، وهو يردد بين شفثيه :
الحمد لله ... الحمد لله ... !

سمعتها خافقة . ملهوفة : خارجة من القلب ! . وقبل أن تمالك

نفسها وتقول أى شىء هرون نحو الباب ، وهو يقول :

— لن أغيب يا حبيبى ... سأعود إليك أسرع مما تتصورين !

وأتبعته بنظرها . وفجوة الباب تضيق في أعقابه شيئاً فشيئاً إلى أن

تلاشت تماماً .

يَوم جديد



أطفئت الأنوار .. وغرق المكان فى العتمة .. ونحو النصب إلى
صمت .. صمت لاهث .. وحشرجات مكتومة .. وفجأة انفرج انصمت
عن ارتطام بالأرض له دوى المفرقات .. أعقبه رذاذ من الزجاج ، تطاير
تحت الأرجل المستكينة للحظة ... فتعاقبت الصرخات . وبدأ انفرج
يلف القاعة ... واختلطت الأصوات .. أصوات النساء والرجال ..
وهنا سطع نور باهر غمر الوجوه التى لم تلتقط أنفاسها بعد ... وحدقت
العين المشدوهة حولها ، تبحث عن مصدر الصوت .. صوت الخطام ،
وإذا بربة البيت تجلس فى ركن . وحيدة . هادئة . تنظر إلى ضيوفها
بعينين سوداوين غامضتين .. وأمام نظراتهم المتسائلة ، تنفجر فى ضحكة
كفقاكات الصابون ، حينما يضعها صبي لاه فى كوب به ماء ، ويكركر
فيها بشفاطة ..!

هكذا هى دائماً فى اللحظات الحرجة ! كل النساء بجانبهن أزواجهن ..
كل الصديقات بلا استثناء .. حتى تلك التى تستثقل ظل زوجها ! حتى
الزوج الخائن ! حتى صاحب المغامرات ! الكل يجتمع فى ليلة رأس السنة
فى بيتها .! الكل يتعانق .. إن حباً وإن رياء .. أما زوجها !! فمعهم
نعم ، ولكن !! .

وهى طفلة ، حاولت أن تبتعث حب أمها لها .. أن تعيد اهتمامها بها ..
أن تشغلها عن شقيقها الرضيع ، الذى استحوذ على كل عواطفها ، فلم

تفلق ! بالبكاء مرة . وبالاتقطاع عن الطعام مرة .. أما ثلاثة الأثافي فبالتبول على نفسها .. ولكن ما من عمل عملته ، إلا وعوقبت بالزجر والتعنيف ، وأحياناً بالضرب ! الضرب القاسى . ! أبدا لم تعتد هذا النوع من المعاملة قبل قدوم هذا الزائر السخيف ... الزائر الباكى ، الزائر الذى لم يكن يستحق فى نظرها مجرد الالتفات إليه ...

وأعينها الحيل ، فلجأت إلى الكسر . كسر كل ما يتصل إليه يدها . احتجاجاً على هذه التفرقة الفظيعة التى لا ترى لها مبرراً ! مع أنها أجمل وألطف وأهدأ من هذا الحنزير الصغير ، الذى لا يهمه إلا امتصاص اللبن ثم التبول على نفسه . !

الضياع . إحساس يائس لازم حياتها ...

وهى طفلة كانت تفزع من الظلام ، فتقوم من حجرتها ليلاً ، وتتخطى الخادمة فى سكون ، وتفتح الباب فى صمت . وتهرع إلى أبيها .. أبيها لا أمها ! فى السرير تتعلق برقبتة ، وتندس تحت الغطاء ، فيأخذها بين أحضانها - بينما أمها تغط فى النوم بجانبه - ويغمرها بالقبلات ، ويريت فى حنان دافق على شعرها وجسمها وذراعيها الملتفين برقبتة . وفى الصباح تستيقظ فتجد نفسها فى سريرها . ! ويدخل ليقبلها قبله حانية قبل ذهابه إلى عمله ...

كم هذا جميل ، ولكنه مروع ! ملك لأمها هو ! تعد له طعامه .. وتلبسه ثيابه .. وتأمره أن يفعل هذا ! وتنهاه أن يفعل ذاك ! ويطيعها ! ثم - وهذا ما يقلقها حقاً ! - معها فى سرير واحد ينام ...

لظالما تمنحت أن ينام معها هي ، ويترك أمها للطفل . سريره بجائتها ..
وإذا بكى ما أيسر أن تأخذه في حضنها ! ..

وقديماً حاولت البكاء ليلاً . لينام معها .. ولكن أمها أصرت أن تنام
بمفردها ! وجعلت الخادمة حارسة عليها ..! تخيفها من العفريت ،
« وأبو رجل مسلوخة .. » وكانت تموت رعباً ، وتنكمش تحت الغطاء كاتمة
أنفاسها حتى لا تشي بوجودها . وحينما تتأكد من نوم الخادمة تتسلل
إلى أبيها . وبدقات قلبها من الخوف وجيب ترتعد أن تسمعه البنت « فتحية ،
المستلقية على الحشية فوق الأرض ، تغط في النوم ...

وهزت رأسها وهي تملأ الأكواب لضيووفها ، بالسائل الأصفر الجميل :..
وتضحك الضحكة التي تشبه القهوة الفائرة ...
البكاء ! متى نفعها البكاء ..

حينما أخذها والدها إلى المدرسة – أمها أيضاً هي التي أرادت هذا !
ظلت تبكي وهي متشبثة به ، ولكن الأبله لاطفتها ، وبخنان أخذتها
من والدها ، حتى استكانت إليها . وبمجرد أن أصبحت وسط الأطفال ،
إذ بالعصا ترتفع في وجهها . حينما حاولت أن تصيح وهي تفتش عن
أبيها ...

وتعلمت كيف تنقطع عن البكاء ، لتحمي نفسها من العصا ..
ومع أن العصا كانت أحياناً تلسعها ، إلا أنها لم تقلع عن كسر كل ما يصل
إلى يدها من أدوات الأطفال ، إذا ما حاول أحدهم أن يغيظها أو
يضر بها ! كانت تتحول إلى قطعة شرسة بمعنى الكلمة ... وكثيراً ما عوقبت

بالوقوف ووجهها إلى الحائط ، ويدأها مرفوعتان إلى أعلى ... ولكن ذلك كله لا يهم ! .

وابتسمت في مرارة . مرارة لا تمحوها أنهار من الخمر ، وهي تنظر بظرف عينها إلى لفتات خفية بين زوجها وهذه الصديقة الوقور .. الوقور جداً ! . التي تجلس هناك بجانب زوج .. زوجها طبعاً ! ولكنه زوج من القش !!

حياتها . حياتها هي ! لكم ودت أن تعيشها كما يخلو لها .. كما يخلو لها هي ! لا ظل فيها لإرادة أحد . لأمتها ، أو ظل أمها ! أبوها ، يحبها أجل ، ولكنه ، لفرط طبيته ، لزوجته مجرد ظل ...

ها هي ذى حياتها - بعد التخرج - أصبحت أخيراً ملكاً لها . هكذا أصرت ! وهذا الشاب الجسور ، كم هو باهر ! بحكم صداقته لمدير الشركة التي تعمل سكرتيرة له ، يأتي ويقضي معها وقتاً طويلاً .. يجاذبها الحديث .. حديث طلي . ذكي . خفيف الروح جداً .. لا تكاد تقفل فمها من الضحك ، وعينها من الدهشة لغرابة ما يقوله لها ...

لم يكن وسيماً . بل هو إلى الدمامة أقرب .. فيه بعض القصر .. ولكن في لباقة وذلاقة طول ! ثم هذه المرأة التي افتقدتها في أبيها ... أجرة هي حقاً ! لا بد أنها شيء آخر .. لأنها شيء لم تعهده . ولم تتصور له نظيراً في اندفاعه ، وتهوره ، وثقته ، وجاذبيته ..

وحينما طلب منها أول موعد لم تردد ! لم تردد وهي تعلم أنها شبه مخطوبة لأحد أقاربها . اختارته لها أمها ! ووافق والدها ، يرغم علمه أنها

لا تريده ! ولكنها الأوامر .. أوامر والدتها !

كانت تبادرها كلما فاتحها في الموضوع :

— أسكتي أنت ! الصغار لا يتكلمون ! من أدراك بالشبان والأعيههم
اسأليني أنا ... أنا أقدر الناس على معرفة ما فيه سعادتك ... سامعة
يا بنت ؟

ولكن البنت هزت كتفها . وخرجت من الحجرة وهي تغتمغ :

— لن أسمع لإنسان أن يختار لي ! إنها حياتي أنا

ونقلت بصرها بين المدعوين حتى لمحته . لمحته يهرج كعادته بين
سيدتين تكاد كل منهما أن يغشى عليها من كثرة الضحك ...

وتنهدت ... وتذكرت كيف كانت تضحك ... ومن فمها الفاجر

على سعته بالضحكات السعيدة ، تسلل إلى أعماق كيائها المبهور ...

هذا حاله دائماً مع النساء ... عشرات المرات تكررت المأساة

وعقد عليها مقتحماً كل عقبة ... ووضع أهلها أمام الأمر الواقع ...

وغضبت أمها .. وقاطعها أبوها .. وأقسما أن يقطعا كل صلة بها

ولم تكن تدري أن الصفة التي جذبتها إليه .. وجعلتها تتعلق به ،

وتترك أهلها من أجله .. ستكون سبب نكبتها ..

كان لديه من الجرأة ما يجعله يرتكب أى عمل وهو لا يبالي ..

وإلا فكيف يسمح لنفسه ، ولم يمض عامان على زواجهما ، أن يستضيف

تلك الشابة الحميلة زاعماً أنها موكلته ... أتت من بلد بعيد ، ولا أهل لها

في القاهرة ، ومن الواجب أن ترحب بها ضيفة في منزلهم ، لأنها غريبة .

وتعيش الموكلة أسبوعاً بينهما ..! تخرج معه في الصباح ، ليعودا ظهراً...!
وأحياناً يقضيان النهار في الخارج ، زاعماً أن ملف القضية سرق وقتها ،
حتى إنهما لم يفطنا للوقت إلا حين قرصهما الجوع !
هذا ، وغير هذا .. أشياء كثيرة .. لا تحصى ولا تعد .. حدثت بعد
عامين من حياتهما الزوجية ...

أما الآن ، وعشر سنوات مضت . فقد أصبح المستور علناً .. فلم
يعد يحشم نفسه التستر لفرط هوانها عليه ! كل من أعجبته يصطحبها
إلى البيت ! وعليها أن تقوم بالضيافة ، وإذا قصرت فالويل لها ...
وارتجفت وهي تتذكر عصا الأبله ، في طفولتها الأولى ... وشغب
الصغار ، وتحرشهم بها ...

لماذا تقبل ؟! ما الذي يجبرها على هذا الوضع ، وفي يدها سلاحها ؟
حمل المرأة سلاحها في الملمات ...
سلاحها حقاً ؟

وماذا يصنع السلاح بغير اليد التي تحمله ، والهمة التي تعرف كيف
تستعمله ؟

وابتسمت ابتسامة تفطر صفاراً ...
لقد تحطمت عظام اليد . والنفس التي تعلقت به أصبحت أشلاء ! ..
كان شرطه الأساسي ، من أول يوم أن تنقطع عن العمل . فلا يعقل
أن تكون زوجته سكرتيرة لأحد ! ..
والآن . لا عمل إن أرادت أن تعيش معه !

ألم تنزل تحبه ؟

وازدادت ابتسامتها مرارة . وهي تواجه نفسها بهذا السؤال .

تحبه أجل . ولكن أى حب هذا الذى بقى فى استطاعتها ؟

إن القامة المنتصبه صارت بغير عمود فقرى .. ولا تستطيع حركة

سوى الزحف فوق التراب ، وجسدها ملتصق بالأرض ...

وحيث داس روحها ، لم تعد يدها قادرة على الوصول إلى السلاح

الذى تراه بعينيها على قيد خطوة منها ...

الحرية تعرفها جيداً .. لكم تغنت بها .. ولكن أوتار حلقها تمزقت ،

وضاع منها اللحن . حين ضاعت منها الكرامة ...

وهذا كل ما بقى لها من ألوان الحب

وقرصها فى أمعائها وخز سكنت ثائره بكأس أترعتها ... شربتها

جرعة واحدة كأنما تلقى ماء على جذوة حريق ...

ماذا بها ؟

شئ .. فى هذه الكأس أضرم ما كانت حرية أن تطفئه من لواعجها ..

وفجأة لعلت فى جوفها ضحكة ، لم تغادر حلقها ...

وبقوة لم تعهدها فى ذراعها منذ سنين ، طوحت بالكأس ، فتناثر

زجاجها كالحشيم ، وتألقت فى عينيها ومضة وهي تقول لنفسها :

— عام مضى بأوزاره وغدا يوم جديد !

قَطْعَةٌ مِنَ الْجِلْدِ



لم يكن حلمًا تمامًا ما مر بها في هذه الشهور الثلاثة . . . وإن كان أشبه شيء بالحلم . . . واقع هو . ولكنه مرفوض . عقلها يرفضه . لا لأنه كريه . ولا لأنه مر . ولا لأنه مؤلم . فما أكثر الأشياء الكريهة والمريرة والأليمة . ولكن العقل مع هذا يقبلها بسهولة ويسر . أما المستحيل الذي يناقض كل تصور للممكن . . .

وسمعت صوت أمها تستعجلها . وهي جالسة أمام مرآة زينتها . وردت عليها تستدعيها . وليس في صوتها إطلاقًا ما ينم على ما يدور بخاطرها . ما أشبهها بإنسان يسير . ويأكل ، ويتكلم ، ويرقص . وهو نائم . وفي الوقت نفسه يعرف أنه نائم !

ورفعت خصلة تهدلت على جبينها وهي تزجج حاجبيها . كان من عادته أن يقف وراءها وهي تتزين . وتلمع عيناه سرورا وزهوا وإعزازا ، تحت شعره الجميل الذي وخطته أسلاك الفضة ، ويغمز لها مداعبًا كلما التقت عينها بعينه . وكل شيء في سمائها — وكان هو كل سمائها — أزرق صاف مشرق . وفجأة ، بلا مقدمات ، انقضت الصاعقة من السماء الصافية ، ودمرت كل شيء . . .

وهزت رأسها ، كمن تنفض ذكرى مزعجة لا يمكن أن تطاق . قال لها ، وهما يتناولان طعام العشاء ، وسعادة تطفو على محياها ، بعد يوم قضياه في نزهة ممتعة . :

— أظن يا حبيبتي أن الألوان لأصاרכك بما انتويته .

ورفعت عينيها تستطلع الخبر ، ويدها تتحرك بالسكين في الطبق . .
وانتابها ذمول لم تعد تذكر من دوامته إلا كلمات متناثرة : كالشظايا
المتطايرة : — الطلاق . . . انصداق . . . رصيد في البنك . . . شيء
زهيد . . . ذكرى جميلة !

وصرخت . ووقعت على الأرض : وأفادت لتجد نفسها على القراش .
وهو يدلك وجهها بماء الكولونيا . وتفرست في وجهه ما استطاعت
وراء الغشاوة الضبابية : ورأت عينيه تبتسمان :

— هل صدقت ؟ إنما كنت أمزح . خطرت لي الفكرة وأنا أراك
ريانة في صباك الناضر كالزهرة . . . وجمال السنوات الست التي
قضيناها معًا . . . وثلاثون سنة تفصل بيننا . . . مجرد فكرة .
دعابة . . . هل صدقت ؟

وفرحت . ووثبت تعانقه . وتبكي على صدره .
وفي الغد سافر إلى الإسكندرية في سفرة من أسفاره الكثيرة المعتادة ،
لإنجاز مهام تتعلق بعمله . قبلها بسرعة وانصرف ليلحق بالقطار . . .
وفكرت أن تقضى اليوم في النادي . . . ولكن تفكيرها لم يطل ، لأن
أمها دخلت عليها . . .

وضاقت عيناها وحدثت في المرأة .

لن تنسى وجه أمها بتعبيراته المتناقضة : فيها الكثير من الدهشة .
وللكثير جدًّا من الفرح . ومسحة صغيرة من الأسف تتقاذفها أمواج

الحيرة والمفاجأة السارة .

— خطاه العيب ! . الفيلا . والسيارة الجديدة . وإحدى عماراته الخمس : عمارة النيل ! انظري ماذا كتب : « تكفيني منها جداً هذه السنوات الست في الجنة . آن لنا أن نقترق بإحسان ، ليجد كل منا لنفسه طريقاً جديداً أكثر ملاءمة لمستقبل أيامه . وسأذكرها دائماً بالخير . وأتمنى ألا تذكرني بالندم . أو الأسف » .

وغرقت في الدموع أياما . . ثم جاءتها الأخبار . . . أنه لا تمر ليلة إلا وهو في دار من دور القصف واللهو . بين الشراب والغواني . وفكاهات الصحاب . . .

هكذا إذن !

السنوات الثلاثون التي تفصل بين عمريهما لم تشعر بها . . . كانت مبهورة بأبهته . ووسامته الناضجة . وحيويته المتدفقة . كانت دون العشرين يوم وقعت عليها عيناه : فاتنة . يتيمة الأب . تدارى انفاقة متجملة بالستر والكرامة . خالطها قبلته — وهو ابن الخمسين لماله وجاهه — ولكنه أدرك مع الأيام أنها أحبته . من يراه يظن أنه لم يبلغ الأربعين . مرح ، جذاب ، يفيض بالسعادة وبهجة الحياة على كل من حوله وما حوله . صارت تخاف عليه من النسيم . وتبهي له ما جعل حياته أنشودة سعادة لم تخطر له على بال . واعتقد أن الحياة دانت له ، فراح يمرح معها ، ويجاريها في كل ما يخطر على بال بشر ، من فنون السرور والاستمتاع . أحس — وأحست — أنه مثلها في العشرين ،

ورفقت معه فى البذخ الذى يتيح له الرأى الطائل : فكأنها أميرة من
أميرات ألف ليلة !

لا عجب إذن خالته أحبها كما أحبتة . ولكن الصاعقة نزلت
فجأة . وتكشف الحلم السامى عن ارتطام أليم بالأرض الصلدة : رجل
يملك الرأى والجاه . وفتوة الجسد الفاره : رأى صبية فاقتناها بعقد
زواج — كما كان أسلافه يقتنون الجوارى الحسان بأعلى الأثمان —
واستمع بها ما طاب له الخوى : ولما ملها طرحها بغير تردد . أنذل
هو ؟ يستطيع ألا يبدو نذلا من فى مقدوره أن يدفع ثمن مظاهر النبيل
بسخاء . وكما قالت أمها يقول الناس :

— خطاه العيب !

أليس قد دفع بسخاء : فدية النذالة . . . وجمود القلب ؟
وأدى قلبها الجرح الغائر . فانسأقت لإلحاح أمها . . . وتفتحت
للحياة ، وغشيت المجتمعات . . .

— أنت فى عز شبابك . . فى أبهى أيام عمرك . . من فى سنك
لم يتزوجن بعد . ولديك كل شىء : الشباب ، والجمال ، والمال .
تمتع بالحياة . . وألف شاب يتمناك . واللىالى تعبق بالمرح . والنظرات
الدافئة الدافقة بالإعجاب . . والتودد . . والترقب . . والجو كله يفيض
بالغزل . . حتى خطرات النسيم ، وأنغام الموسيقى . . وهمسات الحديث
التي تشبه للتأوهات . . .

وعاد صوت أمها يستعجلها .

ليلة أخرى . . . ككل ليلة . . .

ووضعت اللبسة الأخيرة في زينتها . وأسرعت تطفر كالغزال . . .
ومع الفجر عادت إلى حجرتها . وجلست مرة أخرى أمام المرأة تستعد
للنوم . . .

الذنوب حقاً ؟

ما أبعد الساعية عن ذهنها . وعن قلبها !

إنها تخلع ملابس السهرة ، وتخلص من زينة لقيت بها الناس .
فلم تبق لها إلا نفسها عارية ، وقد خفتت من حولها الأصوات والزيارات . .
شد ما سعدت هذه الليلة ، إن كان للسعادة مقياس من النجاح ،
واللمعان ، والتألق . وبخور الإعجاب يحرقه الرجال ، في مجامر من
النظرات ، والهمسات . . .

لقد انتشت أذناها . وانتشت أعطافها . وضحكت . ونسيت . . .
وتفتحت أمامها وسط هذا الحفل الساهر الباهر صفحات مستقبل لها أن
تسطر فيه ما تشتهي .

ولكن هنا ، أمام امرأة زينتها ، وقد خلعت عنها ما لقيت به
الناس ، تلاشى الناس . . . وتبخر النسيان . وجثمت على قلبها وحشة
أشد ضراوة من كل ما عهدته من قبل . . . وتكشفت قمة المرح
والسعادة عن عمق الهاوية التي تحت قدميها . . . وخرج من الهاوية ثعبان
ضخم ، التف حولها ، وراح ينهش فؤادها في وحشية باردة . . .

لم تبك . ولكن الكتابة شاعت في كيانها كله :

ورقدت . وتقلبت . ونظرت إلى صفحة السماء من خلال النافذة
تسرحمها فبدا لها الفجر رمادى اللون كإيها . . فأشاحت بوجهها إلى
الحائط . ووقع نظرها فوق « الكومودينو » على الأنبوبة التي تسعفها
أقراصها عند الأرق . . .

وبيد ثابتة تناولت منها حبتين .

ولمعت عيناها وهي تشرب الماء لتبتلعهما . فيم تطلب النوم ؟ وماذا
بعد النوم ؟ يوم آخر ؟ وما الحدوى ؟ . . كل ما أدخلته أمها في
رأسها عن العالم الذى لم ينته ، وعن الحياة التي بدأت من جديد ،
تبخر . . لم يعد له معنى . حظيت الليلة بأقصى ما تقدمه لها الدنيا
من الأمنى . . وما هي كلها فقاقيع . . كحباب الخمر . . يعقب
صداعًا حين تخلو لنفسها . . ومرارة . . ويأسا كالحما ، وفراغًا
كالعدم !

وطوحت إلى حلقها بكل ما وجدته في الأنبوبة . وتجرعت الماء . . .

. . .

الساعة تدق السادسة والخمسين !

الرجل المتألق المتألق بحب الحياة يعرف ماذا تعنى هذه الدقات .
لقد آن لمن تربع على عرش البطولة في غمرات المتعة والقصف أن
يعتزل البطولة من تلقاء نفسه ، ليظل موفور الكرامة قبل أن يتطرق ظل
الهمزعة إلى شمس مجده الباذخ . . .

لقد كانت آخر صبواته . ولم يظنوا أنه يتزوج بعد أن أشرف على الخمسين ، ولكنه هام بالبنية الصغيرة . . . وهام بافتانها به : وهى كالبرعم الندى . . . ووجد نفسه يتزوجها على غير ما كان ينتظر . . . قال لنفسه إنه أراد أن يجرب حياة الزواج مرة فى العمر : مع النموذج الكامل لعروس أحلام كل رجل يعبد النساء . . . !

وراقه أن يجد نفسه بعد الزواج معبود هذه الصبية الحسنة . أحب فيها - وهو المفتون بسطوته على النساء - أنه سيألفها : وهو أكبر من أبيها . حتى غدت أسيرة هواه .

ولكن الأيام الحارة مرت سراعاً . وإذا بالساعة تدق السادسة والخمسين ! . . .

وأنس فى نفسه بوادر خفيفة تهمس باقتراب ساعة الأصيل ، التى تغرب فيها شمس المجد عن ساحات الأبطال المتوجين . . .

آن للعلم الجميل أن ينتهى ، كى يظل كما كان حلمًا جميلاً . . . صورته أمام الناس ، وأمام نفسه ، أعلى دائماً عليه من كل شيء . . . وفى شموخ من تعود أن يفعل ما يشاء ، كما يشاء ، ويسترخص فى سبيل « هيئته » و « صيته » كل شيء . . . انسحب من حياتها على هذا النحو . . . وعاد كما كان ، نجم ليالى اللهو والقصف ، المتحرر من جميع القيود . . . !

ووجد نفسه يسهر ، ويقصف ، ويشرب ، ولكن رنة جوفاء كانت تعقب كل ضحكاته المجلجلة . . . وعزوفاً لا يدري مصدره

صار ينتابه في آخر السهرات . . .
 كان يبذل أغانيات دور القصف في سخاء . . . ولكنه ينفذ
 يده منهن مع آخر كأس . . . ويمضي وحده إلى دأره . . .
 ويقول لنفسه : غاشية ثم تنجلي ، وأعود كما كنت . . .
 ويعمن في القصف ، ولكنه يجد نفسه آخر المطاف في طريق
 مسدود

ومع الضحى استيقظ ذلك النهار ، وأدخلوا إليه في فراشه القهوة ،
 وصحف الصباح . . . وراح يقلبها في سأم : ثم وقعت عينه على عنوان
 استوقفه : « حسناء تحاول الانتحار لأنها طلقت ! »
 وقرأ بشيء من الاهتمام القاتر : ثم لم يلبث أن فتح عينيه على
 سعتهما ، وقد داهمه شك مفرغ ، أتراها هي ؟ كل ما في أوصافها
 يوحى بهذا . . . !
 ووضع يده على سماعة التليفون . . .

* * *

قال لها ويده تربت يدها في رفق ، وهي راقدة في سرير المستشفى
 الأبيض :

— لنس ما فات . . .

ورمقته بعينيها في عتاب شديد :

— كيف هنت عليك ؟

وأغضى . . . ثم رفع إليها عينيه وقد أوحى إليه تعانق اليدين :
 — حسبت ما كان من سنوات حياتنا الجميلة قفازاً انكملت يدي
 داخله . . . ونحنت أن تبدو فيه هزيلة . . . وجربت أن أخلعه . إبقاء
 عليك . صدقيني ! عسى أن يجد القفاز يداً تزينه خيراً مني . . .
 وزاد في عينيها وميض العتاب ، فقال هامساً ، وهو يقبل يدها :
 — ولكنى لم أستطع . . . وجدت القفاز — دون أن أدري — صار
 مع الأيام قطعة من جلدي . . .

الضَّيَابُ



كل شيء كان يوحى بالخدوء والدعة . في ذلك المنزل الصغير .
المكون من طابقين . في إحدى ضواحي القاهرة . فالطابق الأول مكون
من ثلاث حجرات . ويؤجر مفروشا للعائلات الصغيرة . القادمة
للاستشفاء في مياه الضاحية المعدنية . . . أما الطابق الثاني : فيقطن
فيه المالك . مع ابنتيه اللتين فاتهما قطار الزواج . فعكفتا على خدمة
البيت والأب . . .

والكبرى « فائقة » ، تربي الدواجن في الحديقة الخلفية للبيت ،
وتعنى بفقس بيضها ، ومن نتاجه تباع « البرابر » للجيران والحبايب . . .
أما الصغرى « لائقة » — وهي تصغر أختها بعشرة أشهر فقط —
فتحيك الثياب ، ولا بأس من أن تحيك للجيران والحبايب أيضا بعض
الأثواب البسيطة بأجر « متهاود » . . .

ومن الأجور التي تحصل عليها الأختان ، فوق معاش والدهما . . .
استطاعت هذه الأسرة الصغيرة أن تعيش عيشة راضية . . وبفضل
الحب المتبادل المتين بين الأختين وتعاونهما في كل صغيرة وكبيرة . .
عاش الأب في هناءة وسعادة حتى آخر أيامه . . .

وأشار عليهما خالهما — الشخص الوحيد الذي بقي لهما على قيد
الحياة — أن تستغلا مبلغ التأمين على الحياة ، الذي آل إليهما بوفاة
والدهما ، في بناء واجهة البيت دكاكين ثلاثة ، لتدر عليهما ماتستطيعان

به أن تضمننا مستوى حياتهما . بعد أن فقدتا جزءاً كبيراً من معاش
 واندھما . ومع غلاء المعيشة ، الذى أخذ فى الارتفاع . . .
 وأمكنهما — بعد بناء الدكاكين الثلاثة — أن تستغلا الحجرة
 الخلفية ، بتأجيرها مفروشة لرجل متقدم فى العمر ، اختاره لهما خالهما
 من بين معارفه المحالين على المعاش ، حتى يضمن لبنى أخته البعد عن
 القيل والقال . . .

و « فائقة » فى حوالى الخمسين من عمرها ، ولكنها بفضل الحركة
 المستمرة فى البيت ، ومع الدجاج ، وخارج البيت لقضاء مهمات الغذاء
 والكساء . وكل ما يخص حياتهما . . . كانت معتدلة القوام ، رشيقة
 الحركة . خفيفة الوزن . مع بشاشة وجه ، تقربها من قلوب من تتعامل
 معهم . . . كثيرة الكلام ، كثيرة الضحك . سمراء متوردة . . .
 أما « لائقة » فلعكوفها دائماً على الحياكة ، وأشغال الإبرة ، كانت
 محدودة الظهر قليلاً . . مع اعتلال فى الصحة والمزاج . مقطبة الجبين ،
 قليلة الكلام . لا ترى ضاحكة السن إلا فيما ندر . . . ثقيلة الوزن ،
 مع بطء فى الحركة . . بيضاء شاحبة . . .

ومع كل هذا الاختلاف البين . . كانت الشقيقتان تعبد كل
 منهما الأخرى ، ولا تطيق أن تراها شاكية أو باكية . . .

كان على « فائقة » — الكبرى — أن تشرف على طعام النزول
 الشيخ ، الذى تجاوز السبعين بشهور قليلة . وقد فقد كل من له فى
 الحياة ، أو بمعنى أصح ، « مقطوع من شجرة » .

أما « لائقة » فكانت تخطط له ثيابه . وترتق التقديم منها . وتصلح ما يجب إصلاحه

وكان الرجل مسروراً غاية السرور . . يغدق عليهما . . وكثيراً ما يتحف كلا منهما بهدية ، في مناسبات الأعياد والمواسم . . ولا يخلو الحال من علبة من الشكولاتة ، أو كيلو بسبوسة ، في أمسية من الأمسيات التي تكونان فيها قد شملتاه - خلال اليوم - بطعام جيد أرضى مزاجه

ولم يكن « عبدالمقصود بك » وهذا اسمه - يضمن بشيء على العانستين . كانت صحته - رغم سنه - تبدو في أحسن صورها : قوام معتدل . خال تماماً من الشحم ، وجه أبيض مشرب بحمرة خفيفة . ملامح دقيقة . . ولولا نظارته السمكة جدا - لضعف نظره الشديد - لبدا وكأنه لم يتخط الستين ، أو ربما الخامسة والخمسين

كان أحيانا كثيرة يمر على الشقيقتين ، أثناء عودته ليلا من مجلس القهوة ، فتحفیان به ، ويعيد عليهما ما سمع من أخبار ونكات . . فتضحك « فائقة » بملء فيها وقلبها . . أما « لائقة » فتنظر إليه بعينين متعبتين ، تضخمت جيوبهما ، لكثرة ما نالهما من إرهاق

ولا بأس أن تبسم بشفتيها أحيانا ، إذا كانت النكتة تصل بأختها إلى حد القهقهة

ومضت الأيام

ودخل الحال ، ذات صباح ، على ابنتي أخته ببشرى عجيبة ا

— عبدالمقصود بك يريد الزواج من واحدة منكما . . ! إحداهما والسلام يريدتها زوجة !

ونزل الخبر عليهما فزول الصاعقة . . .

فالأزواج شيء مشروع . لا غبار عليه . وعبدالمقصود بك رجل خفيف الدم . لطيف المعشر . مقتدر . مهذب . محبب إلى القلب . . . ولكن في الأمر شيئاً : كيف لم يطلب يد إحداهما بالذات ؟ كيف يترك الطلب معلقاً هكذا ؟ ! ومن الذي يختار له إذا هو لم يختار لنفسه ؟ !

وجلست الفتاتان أمام خالهما ساهمتين . كل منهما تحاول أن تشغل نفسها بشيء في يدها . ودق الخال بعصاه على الأرض ، وقال بصوت فيه حشجة من أدمن التدخين ردحا من الزمان :

— هيه . . . ماذا قررتما يا ابنتي ؟

ورفعت « لائقة » عينيها المتعبتين ، وكانت — لدهشة الجميع — أسرع من أختها إلى الرد على خالها !

— وكيف نقرر نحن ؟ ! عليه هو أن يختار ! . .

وأجاب الخال على الفور :

— لقد سألته . أيهما تريد ؟ ولكنه رجاني أن أختار له أنا !

وصاحت « فائقة » وكأنما لدغها عقرب :

— تختار له أنت ؟ كيف ؟ من يريد الزواج يختار لنفسه !

أليس كذلك ؟

وقال الحال بصوت متعب :

— الحقيقة أنه يقدركما أنما الاثنتين حق قدركما . . . ولا يستطيع أن يختار إحداكما . فهو عاجز تماما عن التفضيل فيما بينكما !
واشتعل الغضب في قلب الفتاتين . ونظرت كل منهما إلى الأخرى — ولأول مرة في حياتهما الطويلة — نظرة تنطوي على التنمر والموجدة .
فقد أصبح على كل منهما أن تتنازل عن العريس لأختها . . . أو بمعنى أصح . تنكر نفسها — بل تضحي بنفسها — من أجل أختها . . !
ولما أحس الحال بفشل مهمته : ترك للفتاتين مهلة أسبوع .
تقران فيها نهائياً من منهما التي ستنازل للأخرى عن العريس الموعود . . .

وانقلب البيت المادى إلى حرب باردة بين الشقيقتين ، وكل منهما تعمل على إثارة الأخرى في الخفاء ، ثم لأقل هفوة من إحداهما تنفجر فيها الأخرى بفضاعة ، متلفظة بكلمات لم يسبق أن تفوهت بها في حياتها في حق أى إنسان ، فضلا عن أختها توأم روحها !

وانقطع « عبدالمقصود بك » عن زيارة الأختين ، حتى يعلم قرارهما . أما طعامه وثيابه فكانت توضع في غرفته قبل مجيئه . ولم يعد يرى وجه « فائقة » الضاحك ، ودردشتها التي لا تنقطع أثناء تقديمها الطعام له . ولا يستمع إلى كلمات « لائقة » الرزينة المترنة التي ترتاح إليها نفسه . . .

وأحس بضيق شديد لهذا التجاهل والتباعد . وخشى أن يكون قد

أساء إليهما بهذا الطلب . وهو في كل يوم يدقق النظر إلى وجه خاخما . دون أن يجرف على سؤاله عنهما . لئلا يظن به الخفة والطيش .
وفي نهاية الأسبوع . ذهب الحال لإنهاء مهمته . بينما « عبدالمقصود بك » يذرع طريق الكورنيش : ذهابا وجيئة لا يستقر له قرار . . .
وأحست الأختان بدنو المفاجعة . . .

يجب أن تقرر إحداهما . . بل يجب أن تتنازل إحداهما للأخرى !
إنها فرصتهما الوحيدة . . ! الفرصة التي حرمتا منها في صباهما الباكر . ! الفرصة التي جعلت منهما عانستين . . وما أفظع هذا الاسم . . وما أبشعه . . !

وجلس الحال تسبقه حشجة أنفاسه . متهدل الجسم . منحني الظهر . بادي الإعياء . . يقلب النظر بين الأختين في هدوء . .
ومع رشقات القهوة السادة : التي أعدتها له « فائقة » قال :
— أظنكما قررتما . . .

وقبل أن يتم كلامه انفجرت « فائقة » في أختها :
— هل عندك أنت صحة للزواج ؟ خدمة الرجال تهد الحيل . . !
وذملت « لائقة » ألبحمتها المفاجأة ! والتصریح ! وهي التي تصغر أختها وكان يجب أن تتركه لها . ! وهي أحق منها بالراحة من عناء الحياة التي قصمت ظهرها ، وأوشكت على إطفاء نور عينيها . . ! واتسعت حدقتها اللتان لم تتسعا لشيء قط خلال عمرها الطويل . . . وفجأة

أَلَقْتُ بِرَأْسِهَا - دُونَ أَنْ تَنْبَسَ بِكَلِمَةٍ - فَوْقَ الْمَاكِينَةِ أَمَامَهَا ، وَأَجْهَشْتُ
فِي نَحِيبٍ عَمِيقٍ . . .

وَلَمْ تَلْبِثْ فَائِثَةً أَنْ ارْتَمَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا . أَمَامَ أُخْتِهَا ، وَجَعَلَتْ
تَحْتَضِنُهَا . وَتَقْبِلُهَا . وَقَدْ اخْتَلَطَتْ دُمُوعُهُمَا . . .

وَفِي الظَّهِيرِ . عَادَ «عَبْدُ الْمَقْصُودِ بَاكٍ» إِلَى حَجَرَتِهِ . لِيَجِدَهَا
مُغْلَقَةً بِالْقِفْلِ . وَأَمَامَهَا مَلَابِسُهُ . وَفَوْقَهَا وَرَقَةٌ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا بِخَطٍ
وَاضِحٍ :

- أَصْحَابُ الْحَجَرَةِ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا . لَنْ نُؤَجِّرَهَا بَعْدَ الْيَوْمِ . .
وَعَادَ الْهَدُوءَ إِلَى الْبَيْتِ الصَّغِيرِ . وَتَوَقَّفَتْ الْجَفْوَةُ بَيْنَ الشَّقِيقَتَيْنِ .
وَلَكِنْ شَيْئًا ظَلَّ عَالِقًا فِي الْجَوِّ بَيْنَهُمَا . كَأَنَّهُ الضُّبَابُ . . . شَيْءٌ
لَا يَحْجُبُ الرُّؤْيَا تَمَامًا ، وَلَكِنَّهُ لَا يُطْلَقُ الْعَيْنَ عَلَى سَجِيَّتِهَا . . . وَبَيْنَ
الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ تَتَصَاعَدُ فِي الصَّمْتِ الطَوِيلِ ، الرَّائِنِ فِي الْحَجَرَةِ ، زَفْرَةٌ
مَكْتُومَةٌ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، تَجَاوِبُهَا زَفْرَةٌ مَكْتُومَةٌ فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ . . .
وَالْوَقْتُ يَزْحَفُ . . . يَزْحَفُ بِأَلَا تَوَقُّفٍ . . . بِخَطِيئَةٍ ثَقِيلَةٍ ، تَكَادُ تَشُقُّ
سَكُونُ الْمَسَاءِ . . .

الخيمة الزرقاء



هدأت الجلبة . . واستقر كل في مكانه . . واستجمعت شتات
نفسها مفيقة من شرودها . . . ومن هناك رأت العروس . يانعة كالزهرة .
ندية كالصباح . مشرقة كشمس الربيع . . . وتأملت لها . وإذا بشيء
يطفر في صدرها . . شيء أحسته لأول وهلة كالطير المغرد ، يرى
الطيور السعيدة من حوله فيقفز نشوان ليحلق بجناحيه ، وفجأة يصطدم
بأسلاك . . أسلاك قفصه المغلق دون الفرحة والانطلاق . . .

واعتمدت في جلستها ، واستنشقت نفساً عميقاً ، لتقاوم الضعف
الذي انتابها . . فكأن قواها تنزف وتتسرب من جرح خفي . . .
وأحسته بجوارها . . قريباً منها جداً . . . أحست أنفاسه تلمح
وجهها . أحست حرارة جسمه تسرى إليها . وذراعه تحوط كتفها . . .
وابتسمت . . واتسعت ابتسامتها وهي تستشعر دمها يندفع في دفته
قوية إلى رأسها . . .

في مقدور الناس أن يضحكوا دائماً ، وهم يخفون أفظع الأمور . . .
هكذا قالت لنفسها ، وهي تنظر إلى الأزواج والزوجات من
حولها . .

هل هم سعداء حقاً ، كما يبدو على وجوههم ؟ إنها تعرف أكثر من
ما من واحدة فيهن إلا وهناك ما ينفص حياتها . . ولكن ، في مثل
هذه المناسبات . . مناسبات الأفراح ، تحرص كل زوجة أن يكون

بجانبيها زوجها . والسعادة تطفو على وجوههن : كأنما خلت حياتهن
مما ينقصها . . .

ورنت زغرودة وسط القاعة . والتفتت إلى العروس تحت ضباب
ضرحتها . . . هذا المنظر البخاني الرقيق . . وهذا الإكليل الناعم
اللامع من الشعر . . . كل شيء يبدو في غاية الروعة والكمال . . .
ها هي : في غمضة عين : أصبحت زوجة لهذا الرجل . . .
تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها . . فنقل الخاتم من يد إلى أخرى
بعد إيذانا بالزواج ! . .

وهاجمتها مشاعر شتى : حتى إنها لم تتبين شيئاً . . . فقد ارتدت
إليها حياتها بأسرها : مختلطة عناصرها ومكوناتها بعضها ببعض ، وإذا
بالصور تتواكب عليها : صورة بعد أخرى .

أصغر من العروس كانت : حينما زوجها أبوها لرجل يبلغ ضعف
عمرها . لم تكن تعدت السادسة عشرة . طفلة غريرة لا تعرف معنى
الحياة . . . جميلة كانت ، بل قطعة من الجمال الطفلي البريء . . .
سعيدة كانت . بل في منتهى السعادة . . . فستزوج من رجل يكفل
لها كل ما تصبو إليه من رغد العيش . .

ثم . . . وعلى غير ما كانت تتصور ، وجدت نفسها بين ذراعي
رجل ضخم . . متوحش . . اقتحم جسدها الصغير في شراسة وفضاظة . .
ورغم كل شيء . . . كانت تحبه وتخشاه وتحرص على راحته . . .

ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ أبدأ لم تستطع أن تفهمها . . . أبدأ لم تستطع أن تفك طلاسمها . . . فقد سمعت كثيراً عن الحب ، وعرفت صاحبات لها يتدخن . ويبكين . ويولوان لفراق الحبيب . . . ! أما بالنسبة لها . فلم يكن الحب يعنى إنسانا . حتى ولو كان هذا الإنسان زوجها . . . ! بل إن الحب عندها بيت آمن ، وازدهات ، وملابس . وحفلات . . .

هل هى غير الأخريات ؟ ربما ! . ولكن . . . حتى هذه الأشياء لم تتيسر لها . . .

أعجزها طول عمرها أن ترى ما سيكون من أمر غدها . . . وهى إذ تنظر إلى الوراء ، وترى كل ما وقع لها من تعثر ونهوض . لا تدرى لهما سببا . . .

إن الطلاق عملية بتر . . . فلا تستسلمى لها إلا عندما تشرح الغنغرينة تفعل فعلها . . .

كلام قائلة لها امرأة محنكة حينما سمعتها يوما تشكو جذب حياتها . . .

غنغرينة ! يا لها من كلمة بشعة . . .

وهل تزوجت لتنتظر ظهور تسمم الدم ؟ يا له من أسلوب فى إنقاذ الزواج ! !

لم يكن زوجها يمكث معها إلا أياما معدودات . . . ثم يشد رحاله إلى سفر طويل ، لقضاء مهام فى الخارج . . . وهو سبب مشروع ،

وإنما الذى كان يطعنها فى صميمها هو تلك الطريقة التى بها يسافر . . . فلا وداع ، وإنما هو السفر فجأة كأنما لا يطيق البقاء معها . . .

وفى كل مرة كان يغادرها . كانت تشعر بكيانها يتحطم كلما صفق الباب من خلفه . . . وكأن ستارا أسدل بينهما ، ولن يعود إليها بعد ذلك . . . أما حينما يعود . فإحساسها به كشخص غريب عنها ، بل أدنى إلى إحساسها بنزير فندق ، أتى ليغير ملابسه وينصرف . . . وكان لا بد من بتر هذا الزواج .

أليس الزواج شيئاً يبنيه إنسانان معا . . . ويستبقياه معا . . . ويرقعانه ويرتقانه كلما احتاج بناؤه إلى إصلاح ؟

وسألت نفسها ، وهى تنظر فيمن حولها : أهى زيجات بناءة أم هدامة ؟ ولم يكن سؤالها : أهى زيجات سعيدة أم شقية ، فأفضل الزيجات تجمع بين السعادة والشقاء ، أما زواجها فكان شقاء دائماً ولحظات السعادة تمر بها لا تكاد تشعر بمرورها . . .

كان لا بد أن تشغل نفسها ، فقد انهارت حياتها من أساسها . . انهارت أحلامها . . فقدت كل مقومات وجودها . . .

والطلاق شئ رهيب . شئ مدمر . فظيع . لم تدر بفضاعته فعلا ، إلا بعد انفصالها عن زوجها . . .

هل تتوقف حياتها عند هذا الحد ؟ لا بد أن تغرق نفسها فى

عمل . أى عمل . .

ولكنها تزوجت طفلة . ولا عمل لشابة لم تحظ من التعليم إلا بمبادئه . .

وأدركت أنها مقتضى عليها إن لم تثبت قدميها فى الأرض . وتواجه الحياة بكل مرارتها . . . فكلمة « مطلقة » بدأت تلاحقها أينما هلت وجهها . . وشبابها وجمالها أصبحتا عثرة فى طريقها : تخشى منها الصديقة على بيتها وزوجها . . . وتتبعها الذئاب البشرية فى كل مكان تذهب إليه . . .

أليست مطلقة ؟ أليست صيدا سهلا ؟ !

كان الألم يتناولونها . وهى تفتح عينيها كل يوم على أشياء كانت خافية عنها تماما . . . أشياء لو كانت عرفتها لما تحطمت حياتها الزوجية بهذا الشكل المروع . . .

ما أيسر ما كانت تلوم نفسها . . .

أدركت أخيراً أن اللوم إجراء خادع . . وأنه تزييف للحل الذى تريده ، وتخاش من مواجهة الواقع بصراحة . . . هذا الواقع الذى تخشى مواجهته . . .

واستطاعت أن تتغلب على كل شيء ، وأن تمشى قدما نحو غايتها . .

وخلال سنوات قليلة أثبتت وجودها فى عالم العلم . .

ولكنها امرأة بعد كل شيء . . والحب عندها لا بد أن يضرب

يجذوره في الأرض ، في صورة حياة وأطفال وبيت . . .

وكان وقوعها في شرك الحب أمراً لا مناص منه . بعدما رأت من اهتمام أستاذها مدحت بها ، وترصده حركاتها أينما ذهبت . ولم يكن لها قبل بالمقاومة ، وقد وجدت نفسها موضع رعاية على هذا النحو ، وهي الكسيرة الحاطر .

ولم يكن مدحت بأقل منها رغبة في ربط حياته بحياتها . كان يريد لها زوجة ، وأمّاً لأولاده . ورفيقة لحياته . ولا يعنيه بعد ذلك أن تتعلم وتعمل . . .

والكن الأيام علمتها أن تؤمن بحياتها ، ولا شيء يمكن أن يعصم المرأة سوى العلم . . وليس هذا لشك في مدى حبه وإخلاصه ، هذا الحب القوي الذي داس على كل العقبات ليثبت لها صموده . . . ولكن لأنها أحبت العلم حبها للحياة نفسها . . .

كانت آملها عريضة في الكلية التي ستلتحق بها . وفيما ستحققه من مجد في هذا النوع من التعليم . . وكانت آملها أعرض في إنجاب أطفال لذلك الرجل الشهم الحنون ، الذي عوضها حباً وحناناً ورعاية بعد كل مالاقت . . .

ولكنها للأسف والحسرة لم تستطع أن تحقق أيّاً من الأملين : فلا هي أحرزت مجموعاً يخول لها الالتحاق بالكلية التي تتمناها . . ولا هي أنجبت أطفالاً لعب فيها . . .

هكذا صدمها تقرير الأطباء بعد علاج طويل لم يسفر إلا عن
خيبة . . .

أما هو ، فقال لها وهو يحتضنها بحنان :

— لا ينهك . إنهم بشر . مهما كانت درجة معرفتهم . . .
الأمر ليس بيدهم ، بل بيد صاحب الخيمة الزرقاء . . .
ورفع يده وعينيه إلى فوق . . .

وتمايلت في جلستها . ويده تزداد ضغطاً على كتفها . . .
ورفعت عينيهما إلى النافذة عبر رأس العروسين ، فإذا رقعة
صغيرة من سماء صافية ، وعصنمور يطمر فوق فرع شجرة خضراء .

الأفق المفتوح



ظنت أنها ستنسى . . . اعتقدت أن الأيام ستخمد نار الذكرى
في مكان هادئ من أعماقها ، ما دامت لا تمتد إليه يد النبش
والتنقيب . . .

اتخذت هذا القرار ، بعد أن أصبحت في حالة لا يمكن استمرار
الحياة معها . . . فما تسير في الطريق إلا وتحسه خلفها . . ! خلفها
فعلا بلحمه ودمه . ! فتلفت لتصدم عيناها بالواقع المر . . . وما
ينتزعها النوم من واقعها . حتى يسرع إليها طالبا منها أشياء وأشياء . . .
طالما لبتها له في حياته ، عن طيب خاطر . . وبكل حريتها ،
وما تحمل له من حب بلغ حد الهوس . . .

إذا قيل إن الموتى لا يبعثون . . لا يبعثون في الحياة الدنيا . . فهو
قول خطأ ! نعم قول خطأ . . فما يمر يوم إلا وتراه . . تراه بهيئته التي
رأته عليها آخر مرة فارقها فيها . . وغالبا في أحلامها تراه يفتح لها
ذراعيه ، ويناديها . . وهو ما كان يفعله كلما ذهبت إليه . .

ذهبت إليه وكررت الذهاب . . فالمفروض أنه سيكون خطيبها
لولا أن ظروفها - من جهة أهلها - أجلت الخطبة ستة أشهر . . ستة
أشهر لم تستطع أن تحتجزها عنه . . وما كانت لتكتفى باللقاءات عندهم ،
في البيت ! فسموح له أن يزورها دائما . . بل راحا يتلاقيان في بيته . .
لقاءات مستعرة . . فكيف لشخصين جمع بينهما حب جارف أن

يتحكما في عواطفهما ؟ !

لن تنسى ما عاشت ذلك النور الذى أضاء وجهه وهو يتناول يدها ، ويؤكد لها أن زواجهما قد تم فى السماء . زواج له أسرار الخاصة .. وكيف ابتسم وهو يقول لها إنها الآن « سوتى » . ولما رأى وميض الدهشة والاستفهام ضحك وقال لها :

— سوتى لفظ هندي قديم معناه « المرأة الفاضلة » . والهند بلد الغوامض والأسرار ، من قديم الزمن ! . والزواج الذى يجعل الفتاة « سوتى » يدمجها فى زوجها ، روحا وجسدا . . فلا يحل لها أن تفرق عنه ، حتى ولا بالموت ! . نعم ، حتى الموت لا يفرقها من زوجها يا حبيبتي . . . فإذا تزلزلت ، لا يكتفى السوتى أن تظل وفية لزوجها الراحل ما عاشت ، فلا تعرف سواه . . كلا ! بل يجب أن تظل متحدة معه بجسمها ، لا بروحها فقط . لذا ترحب بالموت معه ، كى يظل رماد جسدها مختلطاً برماد جسده ، فى محرقة واحدة ! تحترق وهى حية مع جثمانه ، سعيدة باستمرار زواجهما الأبدى !

وضحكت . وضحك . ولكنها لم تنس . . . وظل اسمها السرى

كلما ناداها فى خلواتها « سوتى ! سوتى » !

لم تشعر يوما بالندم . فهى تحبه . . وهو يفتديها بنفسه . . وزاد اندماجهما ارتفاعاً فى ترمومتر حبهما . . فأما أن لا حياة لأحدهما بعيداً عن الآخر . وهكذا مرت الأيام ، ولم يبق على تحقيق آمالهما إلا خمسة عشر يوماً . .

نعم . خمسة عشر يوما ، وما تدري إلا والقدر ينعاه إليها !!
 كيف حدث هذا ؟ ولماذا ، وهو في أوج شبابه وصحته ؟! هكذا
 انتهت حياته . . انتهت بالمعنى المفروض والواقع الملموس . . أما بالنسبة
 لها فهو يعيش معها . . دقيقة بدقيقة . . لحظة بلحظة . . كل ما هناك
 أنه أمسى متواريا عن الأنظار . . .

كانت تقضى الوقت تكلمه ، كأنه يجانبها . . وجهه أمامها . .
 يتحرك في كل مكان من الحجرة . . ولكن مأساتها أنهم لم يتركوها
 بمفردها . . دائما يقطعون عليهما خلواتهما . . حتى سئمهم ، وسئم
 تدخلهم الذى لم يكن يحدث أثناء حياته ، فراح يطلبها إليه ويلح ..
 خصوصا أثناء نومها . . كان يطلب منها بالبحاح أن تتبعه ، وكانت
 تمهله . . .

انتهى الأمر . . وباتت ترى من واجبها أن ترفض كل من يتقدم
 إليها . . وما أكثر من كانوا يتقدمون . . فهي جميلة ، شهية - على
 حد قول كل من يقع نظره عايتها - ولكن « كيف تتزوج من
 اثنين » ؟ ! هل يحق للمرأة أن تجمع بين رجلين ؟! هى له : كانت
 له وهو على قيد الحياة . . ولم تزل على عهدا لأنه يشاركها حياتها ...

هل تبوح لأهلها بما قطعت على نفسها من عهد ؟
 كيف ؟ سيتهمونها بالخنون . ! سيأخذونها فورا إلى طبيب
 أو مستشفئ نفسانى . . وتقضى عمرها فى مصح . .
 ضيقوا عليها الخناق . وتعلت بكل تعلقة . . أظهروا أنهم

مقتنعون : وصدقوها حينما قالت بعد أن تمّ تعليمها . . واستمرت حياتها ؛ وتركت لنفسها العنان مع طيف حبيبها . . .
 ما بالهم ينظرون إليها هكذا ؟ لعل شيئاً فيها قد تغير ؟ إنها ترفضه ، كما رفضت عشرات من قبله . . هذا الشاب الذي تقدم يطلبها - ولكنه ممتاز . « هائل » . . من جميع الوجوه . .
 لماذا ترفضينه ؟ أفى حياتك غيره ؟ قولى لنا ونحن مستعدون أن نزوجك ممن تشائين . .

هكذا قال لها أهلها بعد أن تعبوا منها . . وبعد أن تخرجت وأصبح من المحال السكوت على انطوائها غير المفهوم . . .
 ماذا تقول ؟ أتقول إنها متزوجة فعلاً ؟ مصيبة ! ومصيبة مزدوجة أن من تزعم أنه زوجها فى عداد الأموات ، فى نظرهم . . .
 ما بال هذا الشاب ليس كالآخرين ؟ ولماذا يتركونهما دائماً منفردين ؟ صحيح أنه لطيف . خفيف الروح . . أبكون هذا مبرراً لتركهما دائماً معاً ؟ !

غريب أيضاً أن يتركوها تخرج معه . . قالوا لها إنه « مصطفى » ابن عمتها . . كان يدرس فى الخارج ، ثم هو فى منتهى الأدب والرزانة . وهو شديد التحكم فى عواطفه أثناء خلواتهما ، مع أن حبيبها كان يفقد توازنه كلما انفردا . . يبدو أنه شديد الاعتداد بنفسه . . أو لعلها فقدت جاذبيتها من طول ما انطوت على نفسها . . .
 ولماذا هى مهتمة به إلى هذا الحد . ؟ وماذا يضيرها لو أنه عاف

الحديث معها ؟ ليست مرتبطة بغيره ؟

لقد أخبرته . . نعم أخبرته فى إحدى جلساتها الطويلة . . هو الوحيد الذى فهمها . . !و أنها باحت بهذا السر لأحد غيره :
لاعتبرها مجنونة - أو على الأقل - اعتبرها مهزوزة . . أما هو فتقبل
اعترافها بصدر رحب . . وبمنتهى الفهم . .

اللهم ! كيف كان يشدها إلى الحديث بمهارة ! كيف كان
يغريها بأسئلته الذائعة بالكشف عن أعماق أعماقها ! !
ولأول مرة فى حياتها تختل بنفسها ليلاً . ! لم يشاركها حبيبها
الغائب خلوتها ! ! وراحت تستعيد ما كان بينها وبين مصطفى من
حديث . . .

وذامت نومًا عميقًا . وأصبحت وكأنها ولدت من جديد ! إنسانة
مستقلة . يدفعها شعور إلى الانطلاق . وتستولى عليها رغبة فى زيارة
كل مكان حرمت نفسها منه هذه السنوات الطويلة . .
والغريب أن طيف حبيبها اختفى تمامًا . ! والأغرب من ذلك
أنها لم تفتقده . ! وإنما هو مصطفى . ! ابن عمته الذى تتمنى لو يطوف
بها كل متعم من معالم القاهرة . . .

كان مواعدها مع مصطفى مساء ذلك اليوم . . وذهبت إليه
مشوقة . . وقابلها بترحاب . .

شئ فيه يحدثها بأنه تغير : هذا اللمعان فى عينيه كأنه مشروع
غمزة لا تم أبدًا ! . . وتشممت بأنفها فلم تتنسم سوى رائحة

« الأولد سبايس » تنبعث من ذقنه الناعم اللامع . . . لقد جود الخلاقة
أيضاً . . .

وانتبهت على يده تمتد نحو خصرها ، وانتابتها قشعريرة كتمتها
بصعوبة . . . وظلت أعصابها — تحت بشرتها — كالأسلاك الشائكة . . .
وهبطت أذامله برفق لترتفع مرة أخرى بسرعة أمام وجهها وبين إصبعيه فتلة
بيضاء كانت عالقة . بثوبها . . . وضحك ، وضحكت أكثر منه . . .
ضحكة عميقة طويلة منطلقة ، كانت أعصابها تتمطى . . . ! وكأنما
أفرغت الغيمة القائمة مطرها فجأة . فغسلت صفحة السماء . وغرقت
هي في صفائها كالعصفور المحلق في البكور . . .

كانت كأنها تطير فعلاً . . . وهما في الطريق إلى السينما . . .

وجلست إلى جوار الممر مباشرة ، وجلس بجوارها ، وفي عينيه
تلك الغمزة التي لا تتم . ! تتسع فتغمر وجهه كله ، وتظهر في خديه
غمازتان عندما يضحك ، وتجد نفسها منساقة معه في الضحك ،
كأنهما طفلان أخذتهما حمى السباق في خلاء تفرشه الأزاهير . . .

وأظلمت القاعة . وبدأ العرض . . . وامتنص « الكارتون »
اهتماماً . . . ووجدت نفسها تصفق بيديها مرحاً كما كانت طفلة . . .
وانتبهت على يده تربت يدها فالتفت إليه لتطالعها في العتمة
الشفافة نظرتة الضاحكة السعيدة ، كأنه أب يرقب مرح طفله في
حديقة الملاهي ، وبسرعة التفتت نحو الشاشة مرة أخرى . . .

ولم تعد المشاهد بعد هذه النظرة تمتصها . . صار ذا وقع آخر :
 وقع الحيط الرفيع يربط بينهما . . وجعلت تختلس انظر إلى وجهه ،
 وهو يتابع ويضحك . .

وأحست على ذراعها من جهة الممر لمسة تعرفها جيداً . .
 لقد عاد !

لم تلتفت . كانت تعلم أنه واقف ، وأن لا أحد يراه سواها . .
 وتصلب كيائها كله . إنه يدعوها لتذهب معه وتترك مقعدها . .
 وتلملت في مكانها ، ولكن يدها امتدت - من غير أن تشعر -
 وتعلقت بذراع مصطفى . . وربت مصطفى على هذه اليد مرتين ،
 من غير أن يحول وجهه إليها . . في ألفة واطمئنان . .

ومن غير أن تلتفت إلى يمينها ، شعرت أنه مشى ، كما تسرى
 الأطياف . . ووقف بباب السينما ينتظر خروجها إليه . . وانتابتها
 رجفة ، وزادت تشبهاً بذراع مصطفى . . وفي هذه المرة نظر إليها
 في قلق . .

- الجو هنا خائق إقليلا . . أتخبين أن نخرج ؟
 ومن غير أن تتكلم نهضت ومشت متعلقة بذراعه . .
 وعند الباب تلفتت خلسة كأنما تستطلع الجو . . ولم تبصر
 له أثراً . .

- أين تخبين أن نذهب ؟

وأبجالت بصرها هذه المرة بحركة واسعة : كأنما لتستوثق ، فلم تطالعيها
إلا السماء الصافية ذات النجوم . . .

وضغطت على ذراعه : وهي تستمرئ مس كيانه لصق جسدها :
وابتسمت وهي تأخذ نفساً عميقاً . .

— إلى مكان . . . أرى فيه الأفق المفتوح . . .

حكاية قمار



خمس سنين . . .

وحببت بثقلها فوق المقعد الوثير . . وتنهدت . وكأنما ربح هبت
من أعماقها ، لتهتك ستارا عن ماض غاف ، يستقيظ فجأة ويتمطى ،
وينشر ذراعيه ، فتختلط المرثيات . . . ها هما عيناه ، السخيتان بالحنان ،
وصوته المتهدج .

— خمس سنين . شيء فوق الاحتمال ، وأظنك توافقينى على
هذا ؟

وتجيبه فى إصرار :

— ولكنها مسألة مستقبل يارءوف . .

وينظر إليها فى عتب أليم :

— مستقبلك بجانبى . وسنبنيه معا فى أى مكان نوجد فيه .

— ولكن . . . كيف أرفض فرصة عمرى ؟

— عمرنا واحد ، وإذا فرقناه أصيب بشلل . .

— أما أنا فلا أرى رأيك . أنت تعمل وتدرس هنا ، وأنا أدرس

هناك . فنثرى بمعلوماتنا ، ونصبح شيئاً كبيراً . . حينما نجتمع مرة

ثانية . . .

وعض شفته السفلى فى غيظ المقهور ، وقال :

— وأنا لا أستطيع . .

ودق الأرض بقدمه . . . وأعقب ذلك إحساس بالتخاذل بدأ
يدب في أعضائها :

— ماذا لو رفضت البعثة ؟ .

وأفاقت على اهتزاز الطائرة بعنف إثر مطب هوائى : وتقدمت منها
المضيئة في ابتسامة مشرقة ، تحمل إليها شيئًا تأكله . واستدارت تنظر ،
من النافذة بجوارها ، إلى الفضاء اللانهائى . وهزت رأسها في عجب :
— من كان يظن ؟

بعد ست سنين من الحب الجارف . والإعداد للمستقبل معا . . .
وابتسمت ابتسامة باهتة .

حينما دخلت المشرحة أول مرة . ورأت الجثث ، أصيبت بإغماء .
وقيل إنها لن تستطيع مواصلة الدراسة بكلية الطب . فهي رقيقة ،
رهيفة ، لا تحمل المناظر البشعة : بل هى أقرب لدراسة الفنون منها
لدراسة الطب .

وأثبتت بنت السابعة عشرة — ياه ! ما أبعد هذا التاريخ ! إنها
أصلب عودا من كل تهاويل وأشباح « قصر العينى » .
وفى المشرحة أيضًا ، التقت بالعينين السخيتين بالحنان أول مرة ،
وكأنما كتب عليهما ألا تومض شرارة الحب في قلوبيهما إلا عبر جثة ! .
ورفت على زاوية واحدة من زوايا فهمها ابتسامة خفيفة منحرفة . . .
يا لها من بداية !

سنين عاشتها : جمعت بين الغرابة والطرافة . . كل جديد لم تألفه

سواء في عالم العلم . أو عالم الحب . . !

بل إن العلم استغرقها . حتى لقبت بين أترابها « بالعالمة الصغيرة » !

وتملكها الجسد ، وهي تلمح في الضباب — ضباب العالم الخارجي ،

من خلف نافذة الطائرة — عينيه تومضان بالعرفان ، وبالتعلق الذي كانت

تراه يشع منهما . كلما وقع في مأزق وأفتته بما يفرج كربه . . .

كم من مرة رفع إليها تلكما العينين ، فاستشعرته بقلبها الحساس .

كطفل تردى في حفرة ورأى يدا تمتد إليه لتخرجه منها . . .

كان طفلاً كبيراً . . . ولكنه كان إنساناً . . احتواها حبه حتى

لم تعد ترى في عالمها سواء يمكن أن يملأ رحاب قلبها الذي لم يدخله

أحد قبله . . .

أما هو ، فكانت له الحبيبة والسكن . . إليها يهرع فيجد الراحة ،

ومنها يستلهم الحياة . . .

كانت حياتهما جدا ، تتخللها أويقات من الهيام الصامت ،

انتظاراً للنهاية السعيدة ، التي كانا يعدان العدة لها ، كلما ضمهما مكان

بمفردهما . . .

سعادة ما أحراها أن تدوم . . أبدا لم تفكر لحيتهما غير هذه النهاية .

أما هو ، فإن المسألة عنده كانت في حكم المنتهية — انتظاراً — ليوم

التنفيذ . . .

وتخرجت بامتياز ، فعينت معيدة في نفس الكلية . أما هو فعين

طبيباً في وحدة من الوحدات المنتشرة بالقرى . . .

وكان لا بد أن تعمل يجد ، لتحضير بحوث الدراسات العليا .
ولم تأل جهداً معه ، لحثه على مواصلة البحث ، فلم تعترف بالنتيجة التي
بعثت به إلى القرى ، مع أنه كان من أنبغ الطلاب . . .
- حظوظ . . !

- هكذا قال هو ، أما هي فكانت على يقين أن حظه ينتظره ،
وسيناله يوماً . . .

وتعلقت عيناها بنقطة في الفضاء ، وهي تسترجع كلماته العاتية .

- ألم يكن هذا اتفاقاً بيننا من أول يوم ؟

- نعم يارءوف ولكن الحال تغير . .

- بل أنت التي تغيرت . . .

- لا تقل هذا . لا يمكن أن أتغير . إنما أردت التأجيل لحين انتهاء

هذا العام الأول من الدراسة العليا . . كيف يمكن أن يخطر ببالك أن

أعيش بدونك ؟

وومضت عيناها ، تلك الومضة الناطقة بالعرفان والتعلق ، فانفجر في

قلبيها ينبوع الأمومة دافقاً بالحب والحنان ، والتقيا في ضمة أودعها

أشواقهما وحبهما وحنانهما كله . . .

وتنهدت ، وهي تتجاوز المضيفة الحميلة بعينيها إلى الشابة التي

تجلس في الناحية الأخرى ، بجانب شاب من المرجح أنه خطيبها .

حركاتهما تدل على ذلك . .

كان إعلان البعثة ، واختيارها بالذات ، مفاجأة لم تكن تتوقعها .

أذهلتها . ولفرحتها لم تضع في اعتبارها أى شىء آخر . سوى أنها أخيراً ستسافر . لتتألم ما تطمح إليه من إجازات علمية .

ولكن الخبر نزل على رؤوف نزول الصاعقة . . .

كان غاضباً . . . وحائقاً . . . ومتوسلاً . . . ولكنها طمأنته أن

السنوات ستمر سريعاً . وأن الخطابات ستنوب عن اللقاءات . .

وودعها بالدموع والعهود الساخنة . . سخونة لن تبرد !

ومر العام الأول . وبدأت خطاباته تقل . تم علمت أنه تزوج !

لا تستطيع أن تلومه كل اللوم . . لقد علمتها هذه السنوات أن

الحياة لا يمكن أن تتجمد . وأن كل ساخن لا بد أن يأتى عليه

وقت يفقد فيه سخونته . . . حتى العهود . . . ماذا ؟ بل لا سيما

العهود ! ! . .

وداعبت إحدى زوايا فمها ابتسامتها الخفيفة المنحرفة . .

ترى كيف يبدو الآن ؟

وأخرجها من عالمها صوت المضيئة . فى الميكرفون : تعلن وصول

الطائرة ، وأن عليهم الاستعداد وربط الأحزمة .

• • •

سنة أيام وهى موزعة بين المهنيين . وبين كليتها . .

وفى ضحى اليوم السابع ، قيل لها فى الكلية إن زائراً يريد مقابلتها .

وابل من الأسئلة السريعة عن الغيبة الطويلة . . . وتلك البلاد

البعيدة . . .

— مصادفة رائعة . . . جئت بعد نقلي للقاهرة لأفيد اسمي لدبلومة الجراحة . . . الأرياف لم تكن تسمح لي بالدراسة . . . وعلمت أنك عدت . . . وأسرعت طبعاً . . . الحمد لله على السلامة . . .

أبدأ لم يتغير . . . هو هو بلحمه ودمه !

هو هو بلحمه ودمه ، أجل ، ولكن . . .

ولاحقتها أسئلة جديدة . وكأنما ضغط على زر حينما سأها عن أبحاثها ، وفي عينيه ابتسامة العارف مقدما .

— في أمراض الأطفال طبعاً ؟ كان هذا اتجاهك من البداية . وهزت رأسها باثمة :

— لا . . . كانت أبحاثي هناك كلها في السرطان . . .

وتطلع إليها بدهشة . ووجدت نفسها تحدثه باستفاضة ، كيف شدتها إلى هذه الأبحاث زيارة لمستشفى مخصص لمرضى السرطان ، وما رآته هناك من ألوان العذاب الذي لا يحتمله البشر . . .

وبدأت « لكن » تسيطر عليها . . . شيء ما وراء اللحم والدم فيه تغير . . . نظرت شاردة ، وتلك الومضة في عينيه لم تعد تطل من وجهه . وكأنه طفل امتدت يد لإنقاذه من حفرة تردى فيها .

شيء أهم من السرطان يلح على دماغه ويتستغرقه . . .

ولحأت للتجربة . . . سكنت فجأة ، وسط جملة ، فلم تتمها . . .

ولم تتحرك أهدابه ، ولم يبد عليه أنه يشعر بسكوتها . . . وتحرك شيء في قلبها . . . ترى ماذا يكربه ؟

ووضعت يدها على ذراعه ، برفق يشبه الحنان القديم . . .

— رءوف ! . . . ماذا يشغل بالك ؟

وطفت على فمه ابتسامة ، كأنها قشرة موزة طافية على وجه ماء

واكدت في بركة . . .

— أبداً . . . أنا مستمتع بما أسمع منك . . . لا أشك أن أسباب

الحياة متقدمة هناك جداً . . .

ياله من تعليق !

ووجدت من الأدب أن تسأله عن زوجته . .

— بخير . . .

— وهل استقر بك المطاف في القاهرة أخيراً ؟ . .

ونظر إليها كالطفل المستغيث ، وقال بأسى :

— استقر . . .

وتنهد وصمت . . .

وبحذر من تخشى أن تحرك ناراً كامنة تحت الرماد ، سأله :

— أهناك ما يعكر صفوك يا رءوف ؟ . صارحني . . .

وبحرارة حقيقية هذه المرة التفت إليها .

— القاهرة . . . القاهرة ! لا بد أن ينتقل إلى القاهرة . . . وأخيراً

جئنا القاهرة . . . وفي أربعة أشهر ١٧ شغالة تقبلن علينا . . .

وأخيراً ثلاثة أسابيع بلا شغالة . . . وكله يهون إلا غسل الأواني . . .

تصورى حتى قفازات المطبخ لا نجد منها نوعاً واثقاً من الماء حقاً ! . .

وجربت قفازات الجراحة . . . وهذه أيضًا لم تنفع !

وزفر ، وأطرق في صمت .

وأثارتَه بنظرة طويلة متأملَة . . . وقالت بابتسامتها الخفيفة

المنحرفة :

— مأساة . . !

وعندئذ فقط تحولت إليها عيناه ، بتلك الومضة المتألقة بالعرفان

والفرح بالمشاركة ، وقال بحماسة :

— فعلا . . . مأساة !

صَفَاء



انكمشت البنت « صفاء » فى مكانها .. والتصقت كالقمرادة بصندوق
المثلجات الأحمر ، الذى تقف عليه أمها وعلى كتفها أختها الصغيرة
« حمادة » ، أمام باب المدرسة ، وعينها على الناحية الأخرى من الشارع ،
حيث العمارة التى يسكنون بدرومها .. وتعتبر أمها نفسها - ويعتبرها
السكان أيضاً - قائمة بأعمال البواب رفض المالك الحديد استخدامه ..
ولقمة من هنا على لقمة من هناك ... على قروش يكسبها والدها ، عندما
لا يكون مريضاً ... والأيام تمضى ...

لم تنكمش البنت « صفاء » من البرد - واور أن الجو بارد بالنسبة
لهذا الوقت من السنة - بل لأن « أم الهول » ألقت عليها ظلها .. و « أم
الهول » طويلة . عريضة . بيضاء اللون . لها عينان واسعتان كعيون البقر ...
ولكن الأخطر من هذا كف يدها التى تنقض كالصاعقة فوق « أنخن قنا »
فى الفصل ... وليس « أم الهول » اسمها الحقيقى بالطبع ، فهى « أبله سنیه »
معلمة الحساب ... توقفت فى طريقها بعد خروجها من باب المدرسة
بخطوتين ، ووضعت يدها الرهيبة على رأس « صفاء » .. فلا عجب
انكمشت البنت كالقطة المبلولة ...

- مبروك لبنتك يا أم صفاء ، ٤٩ من خمسين فى الحساب . الأولى

على الصف !

وحاولت « أم صفاء » أن « تفرق » زجاجة مثلجات للست سنیه ،

ولكن الست سنية اعتذرت ، ورفعت يدها عن رأس صفاء ، لتبسط -
 لكن بلطف - على أخذها ، وتداعبها بأصابعها الطويلة السمينة ...
 كفها ما أشبهه بمطرحة مغطاة بالدقيق الأبيض .. لولا هذه الأظافر
 الحمراء كالطماطم !..

وانتفضت البنت صفاء ، وطارت الفرحة التي عششت في يافوخها :
 - طماطم ؟ يا خبر !

ونظرت إلى النقود في يدها .. وراحت ترفع رجلا وتخفض أخرى ،
 بحركة « محلك سر » ... « بريزة » أعطائها لها « الأستاذ برغش » ساكن
 الدور الثالث منذ دقائق قائلا لها ، في جد أشبه بالزجر :

- بسرعة يا صفاء : كيلو طماطم وحزمة جرجير . جرى في جرى !
 أريدها للغداء بعد خمس دقائق يا بنت !

وما إن ابتعدت الست سنية خطوة واحدة .. حتى كانت البنت
 صفاء تنطلق كالصاروخ .

صاروخ نعم ... ولكن متعدد المراحل .. فلم تكد البنت تصل في
 جريها إلى ناصية الشارع حتى توقفت عن اندفاعها فجأة ... وتسمرت
 عيناها على ولد في يده بندقية رش ، يحاول بها اصطياذ الحمام من فوق
 شجرة عالية ، داخل سور حديقة ... ولم تفلح محاولاته المتكررة في إصابة
 شيء منها .. وهي ترقب حركاته بانتباه شديد ، وهو يرمقها شزرا .. ثم
 يتظاهر بتجاهلها ... ويكرر المحاولة بأناة شديدة ، متصنعا عدم
 المبالاة ..

ولد خائب ... هي ليس عندها بندقية مثله .. لو كان عندها لرأى
كيف تقع العصافير حولها عشرة ، عشرين ، ثلاثين ، أربعين ، خمسين ،
٤٩ من خمسين !...

وتحركت ببطء . وهي تطوح رأسها على نغمات غير مسموعة :
ذات اليمين وذات الشمال : صفاء أمين ! ٤٩ من خمسين ! صفاء أمين !
الأولى على الملايين !...

والتصقت بالسياج وهي تدندن .. ونظرت داخل الحديقة . من
بين أعواد السياج الحديدى .. ورأت قطعة « جيغى » السوداء . ذات
الطوق الأخضر والجلجلة الصفراء .. ونادتها . ولكن القطعة لم تتحرك ،
ولم تنظر إليها .. وظلت مستسلمة لداعية أشعة الشمس فى استمتاع ..
ومدت صفاء يدها الصغيرة بالبريزة الفضية ، وراحت تضرب بها أعواد
السياج الحديدى ، وهي تسير بجواره فى تراخ كتراخى القطعة .. وتعد ،
وهي سائرة فى طريقها ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ... ، ٤٣ ، ٤٤ .. كل
رقم بنقرة على عود فى السياج . . . ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩
ها ها ... هذا يكفى ٤٩ من خمسين ! الأولى على الملايين .. !

ودارت حول نفسها فى حبور دورتين ، وهي تقول :

— على الملايين .. على الملايين !..

وفى الدورة الثانية ، لمحت خروفاً مربوطاً فى عمود النور ، أمام
دكان الحاج إبراهيم العطار .. فكفت عن اللف حول نفسها ، ورمقته
باهتمام شديد :

— أنا في البيت : والكبش في الحقل .. أرأيت الفيل يا خليل ؟
 نعم رأيته ! وله ذيل قصير ! .. ذيل الخروف قصير حقاً . وسمين !
 ما أعجب الحاج إبراهيم وهو جالس بباب الدكان . يكركر في
 الشيشة .. وكأن الصوت يخرج من كرشه الكبير ! وقد أسبل جفنيه
 كالنائم .. ويفتحهما من حين لحين . ليصلح الفحم على التباك بالماشة ...
 وهو يميل بجسمه الضخم ...

وصاحت البنت صفاء بلا وعى . بعد أن ظلت ترقبه برهة طويلة :
 — أرأيت الفيل يا خليل ؟ نعم رأيته ...

وزجر الحاج إبراهيم وزعق فيها :

— امشى يا بنت الأبالسة . يا قليلة الحياء ...

ولم يسعه جسمه بمطاربتها ، فاكتفى بقطعة فحم قذفها بها في
 غيظ .. ووقعت الفحمة بقربها .. فتناولتها في يدها ، وانطلقت راجعة
 إلى السياج الحديدى . الولد صاحب البندقية اختفى .. حمل فشله إلى
 مكان آخر ولكن قطعة « جيغى » لم تزل في مكانها .. وراحت صفاء
 تعد السور الحديدى مرة ثانية بالمقلوب ، حتى وصلت إلى واحد ...
 وإذا بهدى : زميلتها في المدرسة . تصيح بها من أول الشارع :
 — صفاء . صفاء .

والتفتت . ولم ترد . هدى بنت مدرسة العربى .. لم تدع فرصة تمر
 طوال السنة إلا وعيرتها بأمرها بياعة المثلجات على باب المدرسة ... كانت
 تحرض عليها التلميذات ليضربنها ... وكانت إذا رأتها تلعب ، تمد رجلها
 (٧)

لتنعثر فيها وتستقط على الأرض . ثم تصرخ هى وتولول . فتسرع إليها
أمها المدرسة . . ولا تعدم من يشهد معها من التلميذات أن صفاء ضربتها
وأوقعها أرضاً . . فتنازل من المدرسة ما تستحق من عقاب لاجترائها على
ابنتها ... !

وتذكرت مرة ثانية « الأستاذ برغش » والطماطم التى يريد لها للغداء ..
وأسرعت إلى أم صالح بائعة القوطه والجرجير ... أم صالح صديقتها تعطىها
أرخص من السوق .. وتعطيها أيضاً واحدة لتأكلها ... ولكن « الأستاذ
برغش » قال لها : لا تأكل الطماطم بدون غسيل ، وإلا قتلتك الجراثيم ...
أشياء صغيرة ... صغيرة .. لا تراها العين .. تقتل الناس ...

— خذى يا صفاء هذه الثمرة لك .. كليها يا بنت !

هكذا قالت لها أم صالح ، بعد أن أعطتها كيلو الطماطم
والجرجير ... وأعطتها الثمرة ورأتها تضعها فى جيب المريلة .. !
ولم ترد صفاء اكتفت بالقفز ، وهى تتطوح فى طريقها إلى البيت ..
متغنية بصوت له فى أذنيها وقع أجراس الفضة :

— اغسل وجهك بالماء والصابون كل يوم ! اغسل يديك قبل الأكل
وبعده ! لا تشرب من إناء شرب منه غيرك ! لا تأكل شيئاً قبل غسله جيداً !
حافظ على نظافة عينيك وأسنانك ... !

وأعجبها صوتها وحفظها .. فراحت تطرى نفسها بنشيدها الأثير :

.. الأولى على الملايين ! الأولى على الملايين ... !

وقابلها « الأستاذ برغش » بشورة عارمة .. صائحاً بغضب :

— ساعة ؟ ساعة يا صفاء ؟ . لقد تغديت .. خذي ما أحضرت ..
لا أريده ! .

وصفق الباب في وجهها . ونحيط من اللعاب يتسرب من زاوية فمه
من شدة الغضب ...

ونظرت صفاء إلى الباب المغلق في عجب ...

ما كل هذه الثورة ؟! هذه المرة فاقت جميع ما قبلها .. ويغلق
الباب في وجهها ! . لقد وعدتها أن يعطيها ربع جنيته عندما تنجح !
ماذا حدث ؟ ألا أنها تأخرت قليلا ؟! ثم ماذا تصنع هي ؟ هي أيضاً
كانت مشغولة ... أشياء كثيرة في الطريق كان عليها أن تواجهها ...
والحاج إبراهيم الذي لعن أجدادها . ورمأها بقطعة الفحم .. ها هي
لم تزل في يدها ...

الآن ستضربها أمها .. وهزت كتفها ولكن لا يهم !. ٤٩ من ٥٠ ...
الأولى على الملايين !...

واستدارت لتنزل السلم .

السلم عريض . أبيض . ناصع البياض . غسلته أمها في الصباح .
وسياج السلم من الحديد الأسود . أسود كالفحم الذي في يدها ... وراحت
بجرب النزول بظهرها . وعيناها على الدرج الأبيض .. ابيض ناصع .
بغير سوء ...

ورفعت عينها إلى الباب الذي انصفق في وجهها .

إنه لا يعلم . لا يعلم أنها الأولى . الأولى على الملايين . صفاء أمين !

٤٩ من ٥٠ ... ولكنه سيعلم حتما .. وعندئذ ...

وفجأة انقضت على صفحة الدرج الأبيض الناصع أمامها ، وراحت تكتب بقطعة الفحم . في قوة ومضاء :

ز ر ع . . حصد . وزن . كتب . عرف ... إلخ ...

الدرجة تلو الدرجة . تملؤها بالحروف والأرقام .

وعند الدرجة الأخيرة . وقفت تنظر إلى صنع يدها . بالأسود فوق الأبيض .. في إيمان واقتناع .. ثم عضت بأسنانها على طرف لسانها .. وكتبت على الدرجة الأخيرة من أولها لآخرها بحروف كبيرة : صفاء ... وكانت تضغط على قطعة الفحم بشدة . حتى لا تقدر على محو هذه الحروف الأربعة أقدام الصاعدين والهابطين ، على السلم الأبيض الكبير .

شےء لا یصدّق



الليل كافر ! أفكار سوداء تحوم حولها .. ضربات قلبها تزداد وضوحاً .. العرق يتصبب بارداً من منبت شعرها إلى خديها .. يد تعتصرها .. كالخرقة البالية أحست نفسها ...

سافر ابنها . ابن عمرها . حبيبها البكر . هاجر كما هاجر غيره من الشباب .. كلا . ليس كغيره هو من الشباب .. أنجبته بعد أن فقدت طفلها الأول . أنجبته وهي ترتعد خوفاً عليه .. من النسمة العابرة حصته .. عن كل من حولها حجبتة .. ولو استطاعت أن تخبئه بين ضلوعها لخبأته .. ومع كل ما فعلت كان عليلاً يزوره المرض تلو المرض ! وهي تضرع إلى الله الليل والنهار ، كيلا يجربها مرة أخرى ...

وسمع الله دعاءها . وكبر الغلام . وأنجبت غيره وغيره .. فلذة كبدها جميعاً .. ولكنه هو . هو ابن حياتها . قرة عينها . جديراً كان بكل ما أغدقت عليه من حب .. فجازاها تفوقاً في الدراسة واستقامة في الأخلاق وأهم من كل ذلك ، جازاها حباً وحناناً ورعاية ... ملتصق بها هو . لا يبارح البيت إلا للضرورة . مبكراً يعود ليقص عليها كل ما صادفه أثناء غيابه دون إخوته سره معها ..

أبعد كل ذلك ، تستطيع أن تعيش وهو بعيد عن وكرها ؟ أحست لبعده غصة دائمة في حلقها .. آلاما مبرحة في صدرها . قال لها الطبيب عجباً : الضغط مرتفع ! : ولم تعرف معنى الضغط

المرتفع يوماً في حياتها ! وقال لها أيضاً : مبادئ ذبحة ! أما زوجها فقال
 لها : فكرى جيداً من سيقف على خدمتك حينما لا تستطيعين مبارحة
 الفراش ؟ أنا في عملي ، والأولاد جميعاً في مدارسهم وكنياتهم ... !
 زوجها قال لها ذلك ! وائد ابنها ! استطاع أن يتأسك ، ويسترد
 اتزانها ! هو الذي أحسته سينهار ! وتجلدت من أجله .. والطائرة تحلق
 بفلذة كبدهما أمامهما !

لو كانت تعلم متى ستراه ؟ متى ستكتحل عيناها بوجهه الصبوح ..
 ربما كانت الفجيرة أقل . أما وهو سينهى أشهر امتيازته في مستشفى هناك :
 وبعد ذلك يلتحق بمستشفى آخر للعمل ، فمسألة يطول شرحها ...
 وتقلب في فراشها . والتقطت نفساً عميقاً : أحسته رد إليها روحها
 المنسحبة ، وفتحت عينيها ، وإذا شعاع من نور يتسلل عبر الستائر ...
 وأدارت عينيها بسرعة فيما حولها .
 وابتسمت . من كان يصدق أنها ، قبل مرور عامين على سفره ،
 تطير هي إليه ! تطير هي إليه ، على نفقته !

بعد شهرين من سفره أنهى الامتياز . ثم عين في مستشفى . وظل
 يواصل دراسة بجد واجتهاد ، حتى أخذ دبلومة . ثم عين في مستشفى آخر .
 واختاروه من بين خمسة ، هو الوحيد المصري الجنسية بينهم ! ولكن
 العمل عمل . العمل الجيد يزكى صاحبه أينما كان . !
 وفركت عينيها ، وهي تحقق فيما حولها .

غرفة جميلة ، كالتى كانت تراها في المجلات الأجنبية . بسيطة

الرياش والأثاث . ولكن كل قطعة فيها منتقاة بذوق سليم ، يصل إلى حد الإمتاع . . إمتاع البصر والنفس معاً ... ينشرح الصدر بهجة بروائها ... وابتسمت . من كان يصدق أن تطير هي إليه ! إلى بيته ! إلى عشه الخاص ! ولم يمض عامان على سفره ... ؟

بعد أن نالت أنباء نجاحه المطرد ، أرسل إليها صورة مع زميلة له ، مع نبذة عن حياتها وأصلها وفصلها ، يسألها رأيها فيها .. وضربت كففاً بكف . وبكت . وانفطر قلبها ..

ابنها . حبيبها . يتزوج بعيداً عنها ؟ ومن ؟ من فتاة أجنبية ؟ ليها زوجته قبل سفره . من فتاة مصرية ، لتضمن بعد ذلك أن يعودا إلى وطنهما الأم . كثيراً ما قال لها : ماما . أريد أن أتزوج ! ولكنها كانت تأخذ كلماته مأخذ الهذر . أبداً لم تفكر أنه يرغب في الزواج بهذه السرعة ، لم يتم بعد دراسته ! كانت تضحك معه ، وتمهله ، حتى التخرج . وكان يسكت على مضض .. ولم تستطع أن تتبين ما وراء سكوته . في أعماقه كان يتجاذبه عاملان : عامل الشباب الفائر ، وما يتطلبه من رغبات ملحة . وعامل الدين والتربية المستقيمة ، وما يتطلبانه من كبح واتزان .. وحينما طرأت على ذهنه الهجرة ، استناب العاملان ، تحت عامل ثالث : اللهفة على بناء نفسه ...

وفي البداية . كاد أن يصيبه الفشل . فهو بطبيعته داجن يعشق البيت والأسرة . وإذا به وحيد ، في بلد غريب ، والصدر الحاني يبعد عنه أميالا وأميالا . وجو الأسرة لا وجود له ...

وامتلأت خطاباته بالشوق والشجن . وأحست هي بدنو أجملها .
فهي لا تستطيع له شيئاً في غربته . والعودة غير ممكنة . ومكثه على هذه
الحال يقطع قلبها . ولم تجد غير الكلمات المشجعة : وهي أولى بها منه ...
وبدأت نفسه تهدأ ، وبين سطور خطاباته تفوح رائحة الاطمئنان ،
والسكينة ، بل والفرحة بالحياة والنجاح .

وحسدت ربها ودفق الحياة يعود إلى أوصالها المتعبة مع كل كلمة حلوة
تصلها منه . مع كل نجاح يحصل عليه . مع كل صورة يطل عليها منها ...
ثم ... ثم خطاب رقيق يسألها رأيها فيمن اختارها شريكة لحياته !
بهذه السرعة ؟ تأن يا بنى . لا تتعجل . أنت لم تزل صغير السن .
لم تكون نفسك بعد !

كانت هذه هي كلماتها له . واشترك معها والده . خوفاً عليه . خوفاً
على الطفل المغرب . خوفاً على الشاب الحام الذي لم يجرب الحياة بعد ...
وضحك الطفل في أعماقه ! أبداً لم تعتبره أمه رجلاً ! هو هو طفلها
الصغير . ضعيف الصحة . المنزعجة عليه دائماً ...

— لا تخافى يا أماه . لقد عرفت كيف أختار . ممتازة هي من جميع
الوجوه . وإذا كانت تكبرنى قليلاً فهذه مزية تضاف إلى مزاياها .
لا نقيسة تحسب عليها ! .

ولم تستطع أن تحضر الخطبة ، ولا الزواج ! لانشغالها بمهام فوق
طاقها . والآن . وبعد أشهر من الزواج .. ها هي في بيته !
وابتسمت . من كان يصدق أن تنتقل من بلدتها ، وإلى أين ؟ إلى لندن !

باللهفة كلها قابليها في المطار . لم تستطع أن تتحكم في عواطفها وهي
تحتضنه إلى صدرها ، ودموعها هطل على خديها في دقائق متوالية ..
والعروس ، واقفة تنظر وتبتسم . ثم تحتضن حماها : ولكن في توجس ..
وابتسمت . وفركت عينيها .

اختلاف بين في طريقة الحياة . واختلاف أكثر في نوع الأطعمة .
ومذاقها . ولكن أكثر ما استرعى نظرها حالة ابنها ! حركاته ! لفتاته !
طريقة كلامه ! كل شيء فيه تغير . حتى جسمه ! وجهه ! أصبح نحيفاً .
تغيرت ملامحه ! اكتست بالحد ! زالت عنها طراوة الطفولة .. أصبح إلى
الرجولة أقرب منه إلى الطفولة التي عهدتها في قسبات وجهه !
ألى هذا الحد استطاعت هذه الشهور أن تغير منه ؟
أيفرحها هذا أم يحزنها ؟

سؤال راح يلح على ذهنها . وهي مستلقية تستمتع بدفء الفراش ،
وإذا بالباب يفتح ببطء ويطل منه رأس ابنها .
وهمت جالسة ، فدخل عليها هاشاً .

ودق قلبها بعنف وهي تستقبله بين ذراعيها وتشده إلى صدرها .
وسقط عشرون شهراً من بينهما . وإذا الطفل الحبيب يعود إلى أحضان
أمه ، بعينه البريثتين ، بصوته المنغم الهادئ ...
وأبعدته عنها قليلاً ، وراحت تشبع عينيها من وجهه وشعره ، وعينه ،
ورقبته ، وهو يبتسم في صمت . وفجأة سألتها دون أن ييرح جفونها :
— ما رأيك في زوجتي ؟

ووجدت نفسها تنجيه بسرعة :

— لطيفة . ربنا يهنئك ...

— أليست ممتازة يا أماء ؟

وأحكمت عليه ذراعيها وهي تقول :

— ممتازة يا بني ما دامت تحبك ، وأنت سعيد معها ...

وعادت قبله ، فبعد بضع ساعات ستركه لتعود من جديد إلى
الحرمان منه . فقد استقر نهائياً في هذا البلد . أصبحت له فيه جذور :
وضغطت بوجهها على وجهه ، وهي تكاد تدخله داخل صدرها :
وفجأة ، سمع صوت عروسه تناديه . فانتفض من بين ذراعيها ، وظهر
إلى باب الحجرة ، كمصفور يهم بالتحليق . !

ونظرت من خلفه ، وقد أحست خواء ذراعيها اللتين كانتا تطوقانه .
وايتسمت في شجن :

- من كان يصدق ... ؟

الْعُرَى



كل شىء فى الحجرة الواسعة حانك السواد يلفه الصمت ... لا تقطعه حتى ولا أنفاس الصغيرة النائمة ... فالصغيرة النائمة ليست نائمة ، بل وليست تحت الأغطية الثقيلة . التى سواها أبوها حول جسدها الرهيف منذ لحظات . ثم غادرها الليلة — على غير العادة — فى لهجة ... وقد خيل إليها . أخيل إليها حتماً ؟ ليست هذه هى الكلمة الصحيحة . بل إنها فى الواقع كانت « تعرف » فى أعماقها أنه يتحاشى التقاء عينيه بعينيها ، وهو يقبل جبينها ، كما يفعل كل ليلة منذ ماتت المرحومة ...

لهجة خفيفة جداً فى حركات أصابعه .. ورجفة فى أجفانه ، وزاويتي أنفه .. رجفة صغيرة جداً أيضاً .. ولكنهما كافيتان كى تدرك سناء أنهما موجودتان ... وأن داخل « بابا » شيئاً فى هذه الليلة يختلف اختلافاً حاسماً عن كل ليلة ...

هناك عمتها « فكرية » بالطبع . فقد حلت منذ عصر اليوم ضيفة عليهما فى البيت ، ومكثت للعشاء . وعندما استعجل بنوها عودتها بالتليفون ، استمهلهم بصوت تعمدت أن تسمعه سناء بوضوح .. — وصوت عمتي « فكرية » يشبهها شخصياً تمام الشبه : فهو مثلها قصير بدين نوعاً ، ورنان مثل نظرات عينيها الواسعتين كعيني بقرة — تعمدت أن تسمعها سناء تقول لأولادها ، فى التليفون ، بهذا الصوت الرنان :

— سناء أوحشتنى كثيراً .. وجدتها كبرت وصارت عروساً جميلة ..

عاقلة تفرح القلب ... سأمكنك معها قليلا .. أريد أن أمتع نفسي بها ...
 ورومت سناء بنظرة غزل ... وانكمشيت الصغيرة بنت السنوات العشر
 في نفسها . لا تواضعاً . بالعكس : لم يكن للمسألة أى صلة بالتواضع
 بل كبرياء ! أحست في قرارة نفسها أن « عمى فكرية » تستغلها بهذا
 التملق : أو التودد : غير المعهود . وقد تعودت . كلما تودد إليها أحد ،
 أو تملقها ... وأطرى عقلها على الخصوص .. أنه في سبيله إلى طلب
 التضحية بشيء ما من جانبها . شيء في مصلحة من يتملقها ، ولا تتبين
 هي أى مصلحة فيه على الإطلاق لنفسها !

عندما « تشبط » مثلاً في أبيها ، يتذكر أبوها عقلها ويثنى عليه :
 وعندما تطالب بالذهاب مع بنات المدرسة في رحلة .. يحدث نفس الشيء .
 وعندما تكثر من اللعب بكرتها ، أو تحاول لعب « الأولى » في حجرات
 البيت ، تتذكر « دادة كوثر » فجأة مناقب سناء العقلية ، وتنسى بسرعة
 كل ما كانت ترميها به ، قبل لحظة واحدة ، من صفات لا صلة لها
 بالعقل والرزانة . فلا بد أن يصير العقل مرادفاً ، في ذهنها ، للمتاعب
 والقيود وتجرع الغصص .. ومن هنا نشأت لديها حاسة شبه غريزية :
 متى سمعت سيرة عقلها ورزانتها وحكمتها ، عضت بأسنانها على طرف
 لسانها ، كما يعض الحصان على اللجام استعداداً للحران ، وغضت
 بصرها لتخفي مشاعر البغض والتحفز للمقاومة . وأرهفت أذنيها وأيقظت
 عقلها كله ، لتكتشف موضع « البلفة » أو « الشرك » الذي ينصبونه لها ،
 باسم الحكمة والعقل .. !

ولم يطل انتظارها كما توقعت... فعمتها فكرية التي تدعى أنها لم تبق إلا لإرواء ظمئها ووحشتها منها . هي بنفسها - التي بعد أن أغرقتها في ربيع ساعة من التلايل السخيف اليراق . اليراق مثل بهرجة ثوبها وحليها و« فورمة » شعرها وكحل عينيها .. تبرعت باكتشاف النعاس في عيني سناء . قبل موعد نومها المعتاد بساعة ...! وعبثاً أنكرت سناء ذلك . فقد قاطعتها عمها :

- البنت - يا حبة عيني ! - نفسها تجالسني ... لا تخافني يا روحى ..
سأتى مرات أخرى كثيرة جداً . حتى تشبى منى !....
وتوقعت . بعد أن انتهى مبرر بقائها . أن تستأذن هذه العمة في الرواح إلى أولادها . ولكن حدث العكس . بقيت العمة وتولى الأب والدة « كروتة » سناء إلى حجرة النوم ! ..

وأغمضت الصغيرة عينيها بأسرع من المعتاد ، بعد أن ثاءبت مرتين . أغمضت عينيها عندما رأت نظرات أبيها . وسط « زينة » عمها وصخبها ، تتحاشى الالتقاء بنظراتها . وكأنه مذنب ضبط متلبساً . فهذا الأب الطيب لم يتعود الغش في أى لعبة يلعبها معها . ولا في أى كلمة .. ولا بد أن يتندى جسمه بعرق الحجل ، إذا وجد نفسه متورطاً في عملية خداع أو تهريب أو تدليس . عملية تهريبها هي إلى النوم . وعملية التدليس على عمها فكرية ...

ولكن ما هي المسألة بالضبط ؟

هذا ما تناومت من أجله لتستل ربيتهما .. ومن أجل الوصول إلى

معرفته وقفت في الظلام الخائل . الذي يضمس كل شيء في غرفتها .
 حافية القدمين . خلف الباب مباشرة . وعينها على ثقب المفتاح ، كأنها
 فوهة مدفع ! وسمعتها المرهف تركزت فيه كل أعصابها . فلم تنبه لرجفة
 البرد الخفيفة . التي تصعد من قدميها . إلا بعد بضع دقائق . فخفت
 إلى موضع خفيها تحت السرير . وعادت لتحتل مكانها مرة أخرى .
 خلف نافذة الأسرار .

شيء ما يدور هناك على الأريكة الكبيرة ، تحت صورة أمها ...
 حيث جلست عمتها فكرية إلى جانب أبيها . أي مفارقة ضخمة بين السيدة
 البراقة الصاخبة الألوان والحركات والزينة . وبين الصورة المعلقة فوق
 رأسها ، لامرأة فيها كل شيء من القراشة : رقها . رهافتها . رفيفها الساكن .
 نظراتها البعيدة الحزينة . كأنها تتحسر على ضوء لم يكتب لها أن تصل
 إليه أبداً ...

عمتها فكرية تتكى على كتف أبيها . كأنها تريد أن تبلفه . إنها
 لا تكاد تكف عن بلف كل إنسان . وكل كلمة تقولها وراءها فح . هكذا
 تحس سناء . ولكن ما الذي تريد أن تخدع به بابا كي تحصل عليه ؟
 إن صوتها ، على غير العادة ، همس أو كاهمس ! والانفعالات
 التي على وجه أبيها لا تستطيع أن تفهم منها شيئاً . بابا غالباً رجل متردد .
 نصفه يريد ونصفه لا يريد . حتى عندما تتحدث سناء عن رغبتها في
 نزهة . نصفه يريد تنفيذ رغبتها ، ونصفه الآخر يحبذ البقاء في البيت .
 وعندما تقترح دادة « دقية نورلى » أو بامية أو شركسية ... لا يبدو حماسه

إلا نصف خمس . أما النصف الآخر . فربما كان يحوم حول ملوخية
بالأرانب ... فهذا الذى تطالعه على صفحة وجهه . من أمارات التردد
الشديد . لا يدلما على شىء فيما يختص بالموضوع الخطير الذى تلمع به
عينها فكرية . وتدل حركاتها على لطفها العميقة على استدراج أبيها
إليه .

وسمعت من بعيد رنين جرس الباب .

وكأنما وثب فجأة لولب داخل جسم عمى فكرية ، فقفزت واقفة ،
ولعت عينها البقرة فى وجهها المستدير كالكرة .

كل هذا لم يدهشها تماماً . فعمتى فكرية ما أكثر ما يداخلها من
اللوالب التى تجعلها تقفز لسبب ولغير سبب . ولكن الذى أذهلها حقاً
تلك الحركات العصبية ، التى صدرت - على غير المألوف - من والدها :
يداه ارتفعتا بسرعة إلى رباط عنقه يسويه ، ثم إلى شعره يوجله برفق ،
بعد نظرة خاطفة إلى مرآة معلقة فى إطار مذهب على يمين صورة «المرحومة»
وملاحظه اكتست حمرة خفيفة ، كأنه «أبله» اعتماد مدرسة الفصل عندما
يدخل عليها المفتش ... وهبط نظره إلى خذائه ، وتوقعت أن تراه يلمعه
فى بنطلونه . ولكن عمى فكرية جذبتة من يده بسرعة ، وجرت ورائها
إلى الصالة ، وصوتها «الحيانى» يجلجل :

- أهلاً وسهلاً . أهلاً . بأ . بأ . بأ . بأ .

أربع قبلات من النوع الذى يطرق كصواريخ «حرب الحبش»
الذى يلعب بها الأولاد فى العيد ، وينهاها عنها أبوها .

ودخلت الصالون في المقدمة سيدة طويلة ، ملفوفة ، إذات شعر
طويل ، أثيث ، أسود ، لامع ، مرسل على جانبي وجهها الأبيض
الناصع . وخطوتها الواثقة تفتحهم وراء نظرتها أرجاء القاعة ، وتكاد
تحيط بكل شيء في لمحة واحدة من لمحات الصقر الذي تعود التحليق في
جميع الأجواء . . .

ومن ورأها ، دخل رجل طويل ، عريض الكتفين ، له شارب
أسود منسق ، كأنه مرسوم بقلم فحم ! ووجهه ناعم جامد الملامح ،
كأنما صنعه نجار ماهر وتولى طلاؤه ببراعة ، وركب له عينين زجاجيتين ،
لا تكادان تتحركان . لمعانهما المستمر لا تتغير ظلاله ، مثل عيون الأسماك .
إخ ! شد ما تكره السمك وسيرته ! ورائحته على الخصوص ! إنها تكاد
تقسم أن لهذا الرجل رائحة كرائحة السمك . . . !

وفي الخلف دخلت عمى فكرية ، وهي تلكرز « بابا » بكوعها في
تواطؤ . . . وفيها مستمر في الترحيب بالزائرين اللذين جلسا . . . وتسالت
إلى أنف سناء رائحة عطر قوى . كلا . ليس قويا تماما . . . نفاذ فقط .
نفاذ في رفق كنسمات الفجر بعد ليلة حارة . . .

ورفعت الزائرة بصرها تتأمل النجفة الكريستال . . وبسرعة قالت
عمى فكرية في لهجة التنبيه ، كأنها تحذرها من الوقوع في خطأ :
— صنع الخارج ! اشتراها حمدي من فينيسيا . . .

وابتسمت الزائرة في صمت . كأنها تقول « أنا لا أعارض » . ولم تدع عمى
فكرية حبل الكلام يفلت من يدها ويقع على الأرض ، فاستطردت بسرعة :

— الحقيقة حمدى طول عمره مغرم بالتحف الأنيقة الغالية ..
 والمائيل الصغيرة . والصينى ! سترين بعينيك كيف تقنن فى انتقائه
 رحلاته الكثيرة لحضور المؤتمرات فى أوروبا . كان يخصصها لشراء أنواع
 التحف والصينى . وأدوات المائدة .. الحقيقة البيت لا ينقصه شىء كما
 قلت لك

ودخلت الخادمة بأكواب العصير . وانتهزت غمى فكرية الفرصة
 وقفزت حتى وقفت بين الزائرة وبين النجفة : ورفعت كأسها فى النور
 وهتفت بها :

— انظرى ! تألق وشفافية لا مثيل لهما إلا فى مصنوعات بوهيميا
 الأصلية !

وابتسمت الزائرة ونظرت وأبدت إعجابها بصوت خافت ... وعادت
 غمى فكرية إلى مكانها على الأريكة بجوار بابا .. ورمقته بنظرة استحثاث ،
 كأنها « زغد » فى جنبه ، كى يساندها فى الكلام ...

— حمدى الحقيقة ذوقه ممتاز ... وغرامه بالجمال والرقه يفوق الوصف .
 ولا يرضن بشىء أبدا فى سبيل اقتناء تحفة تروقه ...

وكأنما كان ينتظر بابا هذه الإشارة . فالتجهت عيناه إلى الزائرة فى
 إعجاب صامت ، ولكنه واضح . وشبكت المرأة عينيها بعينه ، كأنما
 تريد أن تنومه مغناطيسياً ، وهى ترشف بقية كوب العصير ...

لا بد أن ثقب الباب ينفذ منه تيار هواء . وإلا فما سبب هذه الرجفة
 التى أحسنها سناء وهى واقفة هناك ، حتى لقد أوشكت أن تعطس ،

وبصعوبة كتمت العطسة حتى انصرفت لحال سبيلها ، وعادت ترهف السمع والبصر .

وكأنما تفجرت ينابيع سرور زائط في داخل عمى فكرية فهتفت تبارك وتحى النظرات التي تلاقى :

— الحقيقة يا حمدى « فوزية » تحفة ولا كل التحف . حظك من

السماء ...

وتهلل وجه « بابا » . واقتر وجه الرجل الحشبي عن ابتسامة زادت خطى شاربه المرسومين طولاً وانفراجاً ... ثم نظر في ساعته . كأن الزيارة محسوبة الزمن كفترات الامتحان والتقطت عمى فكرية هذه الإشارة ، فاقترحت أن يطوفوا بحجرات البيت :

— الحقيقة ، كما قلت لك يا فوزية ، البيت كله آية ... استعداداه

كامل . لا ينقصه شيء .. ما عدا النجفة الكبرى طبعاً .. زينة الكل .. ولم يحمر وجه بابا هذه المرة كاحمرار وجه « أبله اعتماد » أمام المفتش . كان احمراراً من نوع آخر . ليس أشد فقط ، ولكنه مصبوغ بتودد كتودد « بيجو » ، عندما يتوقع على المائدة قطعة ممتازة من عظم الحمام الذى يحبه ، ويظل يهز ذيله .. وحانت منها التفاتة إلى « بابا » ، كأنها تبحث خلفه عن شيء يهتز

وصاح صوت عمى فكرية ، وقد وقف الجميع استعداداً للجولة

التفتيشية ، وذراعها الممدودة تشير في حركة دائرية إلى المقاعد ، واللوحات الزيتية ، والمرايا المذهبة فوق الجدران :

— هذا هو الصالون طبعاً . صنع فرنسا ... اشتراه حمدى حين كان فى السلك السياسى .. وكذلك قاعة المائدة وحجرة النوم ...
وطاف نظر « فوزية » متمهلاً هذه المرة ووقف عند اللوحة الكبيرة التى تمثل « المرحومة » فوق الأريكة فى صدر الصالون ، وتأملتها جيداً ، ثم التفتت إلى عمى فكرية فى تساؤل صامت .. وردت عليها عمى فكرية بإشارة من ذقنها المدبب كأنها تقول لها « نعم . إنها هى » ، ثم استطردت تقول بسرعة :

— ستم كل التغييرات المناسبة طبعاً فى حينها : .
والتفتت إلى بابا ، وقالت بنظرة جانبية حازمة ، كأنها تزغده لبتكلم :
— أليس كذلك يا حمدى ؟

وانتفض وقال كالمسوع ، فى لطفة وحزم لم تعهده فى طبيعته المترددة من قبل :

— طبعاً طبعاً ...

أتش !

العطسة أفلتت . ووجدت سناء جميع الأنظار تتجه نحو الباب ، وأسرعت عمى فكرية — كيف تتحرك بهذه الخفة كلها ؟ — وفتحت الباب .. ورأت سناء كل الأضواء والأعين تنصب عليها ...

لم تر أحداً أمامها غير أبيها ..

وقفت تنظر إليه فى ذهول ...

وانكمش حمدى فى موضعه كأنه أحس فجأة بعريه تحت نظراتها ،

وعيناها تكادان تستغرقان وجهها الصغير في قميص نومها ، كأنها جنينة
خرجت من عالم الأقزام ، في كتاب حكايات قديم ...

وزاد إحساسه بالعري : حين مدت فكرية يدها بحزم ، لتجر
الصغيرة وهي تنهبرها ، والصغيرة لا تلتفت إليها ولا تحول عينها عنه كأنها
تراه لأول مرة .. لا بد أن عريه مذهل لعينها ...
وبحزم انبعث صوته حاداً جازماً :

— فكرية ! دعيها !

وبحزم جازم تقدم نحوها ، وخطواته تصك الأرض على غير عادته ،
ومن غير أن يلتفت وراءه ليعتذر ، انحنى وحملها بين ذراعيه ، وأغلق
الباب خلفه ، ومضى بها إلى سريرها ...

— ماذا أيقظك ؟ نامى يا حبيبتي ..

وفى بقية من الذعر ظلت بعد أن استعاد صورته في ناظرها ،
قالت له :

— لا أستطيع أن أنام ... لا تتركنى يا بابا ..

وبحنان شديد احتواها في أحضانها ، وهو يقول بذلك الحزم الجدي
الذى لم تعهده :

— لن أتركك يا روحى ...

ومن غير أن يفكر — هذا الحريص على الترتيب والنظام — اضطجع
يجوارها دون أن يخلع حذاءه من قدمه ... ووضع رأسها على كتفه ...

رجفة إصرار



كان أول ما تعلمته من دروس الحياة أننى امرأة . . . وأن المرأة
غير الرجل . . ! كنت أرى أبوى يحبان أختي حباً مغايراً لأختيهما . . .
ومع أنه كان أصغر منى ، إلا أن اهتمامهما به ، وحبدهما عليه .
كان من صنف غير الذى كنت أحظى به . . فهو « رجل » ولذا فله
وزنه . . أما أنا ففتمتة : حيوان من حيوانات الزينة ! حببهما لى سمح ،
رقيق ، فى غير كبير عناية ، ولا تقدير . . ! لا أنكر أنهما كانا يحباني
ولكن حببهما كان مثقلاً بالنواهي . والضغط . والحرمان من كل
ما يتاح لأختي ، حتى ضقت يوماً بهذه المعاملة . فحسبتها بموقف
من أمى ، فما وجدت منها إلا ردّاً نزل على كالطعنة المصمية . . .
وحفر فى نفسى ندبة لازمتنى مدى الحياة !

— لا تنتظري من الناس أن يعاملوك كرجل . . . وخير لك من الآن
أن تواجهي الحياة بنفس امرأة !

ما معنى كلماتها ؟ هل أحنى الرأس وأعيش ذليلة ؟ إمعة ؟
أقضى الحياة تحت كنف رجل يسيرنى حسب هواه ؟ أبى أولاً . .
ثم زوجى ؟ !

هيهات . . !

ومنذ ذلك الوقت — وكنت فى العاشرة — انطويت على نفسى ،
وأسدلت ستاراً كثيفاً بينى وبين أبى وأمى . . وآليت أن أتخذ موقفاً

من الحياة . وهكذا رحت أختزن أسرارى . . وآمالى . . وأوجاعى
وأحزاني : فى ذلك المستودع المظلم من أعماقى ، ولا أبوح به لإنسان . .
ولم يكن « حازم » : جارى : إلا طفلاً فى مثل سنى أو يكبرنى
بشهور . . ومنذ صغرنا الباكر : كنا نمرح معاً وسط « شلة » من
الأطفال . وما كنت أجده من الكبار كان على صورة أبشع بين
الصغار . . فإثناء اللعب ، كان الصبية هم المسيطرين الأمرين ، فى حين
كانت الفتيات خاضعات مستسلمات . . إلا أنا ! فما كنت أسمح لأى
طفل أن يملئ على شروطه ، بل كنت أقف منه موقف الذئب فى عناد
وإصرار لا يلين . . وكم من شجار بينى وبين حازم ، كان يصل
أحياناً إلى التراشق بالألفاظ ، وتقع القطيعة بيننا أياماً وأياماً ، ثم
يحدث الصلح فجأة ، بدون إشارة إلى الماضى ، وكأنما لم تكن
قطيعة . .

وترعرعنا معاً ، حتى بلغنا أشدنا . . شىء كان يربطنا ، فننأى
بنفسينا عن ألعاب « الصغار » — هكذا كنا ننعت أفراد الشلة ،
ونستصغر ما فى عقولهم من سذاجة — وكان يصف لى ما فى « القدس »
من جمال ، وما كان يحدث من أفراح فى مواسم الحج والأعياد . .
والمسجد الأقصى ، وما هو عليه من بديع المعمار ، وكيف بنى . .
وكيف أنه قطعة فنية رائعة . . وكذلك الكنائس وما تحتويها من جمال
يبهر الناظر ، ومهد السيد المسيح . . والعذراء ، والمروج الفيحاء . .
والربى التى يحف بها السحر . .

كان يحدثني بشغف ونحمس ، كأنما ولد وعاش بين مراتعها . .
 واستنشق هواءها . . . وهلاً عينيه من حسنيتها . . . وكنت أضع يدي
 على يده . . . وهو يقسم أن يحررها . . . وأنا أقدر في سري الوقوف
 بجانبه . دون أن أفصح عن نيتي . خوفاً من زراية تدمي موضع الجرح
 الذي أخفيه عن الأعين . . .

كنا جيل النكبة التي حدثت عقب حرب ١٩٤٨ بين مصر وإسرائيل .
 وكان حازم ابن إحدى الأسر الكثيرة التي لجأت إلى مصر ، واتخذت
 منها وطناً ثانياً . . . ولد بعد النكبة بثلاثة أشهر . . . نزحت أمه وهو
 في أحشائها . مع بعض أفراد أسرته ، وقد استشهد زوجها .
 والد طفلها الأول والوحيد . في تلك المجزرة التي حدثت في ذلك الوقت
 من عام ١٩٤٨ . . .

وشب حازم ، وفي قلبه ضمناً مستعراً على تلك الشرذمة من شذاذ
 الآفاق ، مغتصبى وطنه الحبيب . . . ضمناً تزيد الأيام ضراماً ،
 لكثرة ما أرضعته أمه درس النكبة مع لبنها طملاً . . . ولقنته له يافعا .
 وما كان ليجد إلا أنا . . . الفتاة الجسور . . . الفتاة المتمردة . . . ليصب
 في أذني ما تلقته عن أمه ، فنندمج معاً في تدبير خطط ومشاريع
 لمستقبل ، كل ما فيه يوحى بالتأثر . واسترجاع الأرض السليبة
 لأبنائها : أحلام أطفال !

شد ما كان يؤمن بها . . . فما كان حازم إلا رجلاً في إهاب

يافع . . وما كانت ثورته نصير بلده . أقل من ثورة الرجال ذوى
البأس . . .

وفرت الأيام بيننا . . سار كل منا فى طريقه . . وانقطعت
أخبار حازم عنى . . وسرت فى طريق العلم . برغم معارضة أمى .
ورفضت بإصرار الزواج من رجل يعتبر كسباً لأى فتاة . . سرت
أحفر لنفسى طريقاً مخفوفاً بالأشواك . . مليئاً بالمنغصات . . حتى
تخرجت فى كلية التمريض . .

ما أسرع ما تنقضى السنون . ! وما أروع أن يحب الإنسان عمله
ويبقى فيه . . والحق أن التمريض لم يكن لى مجرد مهنة . . فقد
استقطب حياتى كلها . . .

ومضت الشهور . وقد استغرقى العمل . حتى بت أعيش فى
اللحظة . دون ما تفكير فيما مضى . وما سيكون . .

ولكن أيامى لم تكن أيام هدوء . . فالجو الذى ولدت وعشت
فيه . جو حروب . . جو مشحون بالاستعدادات لحرب مرتقبة :
فقد تخرجت فى أعقاب النكسة . التى حاقت بنا على يد شذاذ
اجتمعت لهم كل عناصر التفوق . من مساعدات جوية . وبرية .
وبخرية . تمدهم بها أقوى وأكبر دول الاستعمار . .

وهكذا تحول إصرارنا على هزيمتهم إلى استماتة . . .

يا لها من سنوات تلك التى شببت فيها عن الطوق ! .

لقد أصبح للفتاة شأن أى شأن . . صارت وزيرة . ورئيسة

هيئة ، وعضواً في مجلس الأمة . وكل مكسب كانت تحصل عليه .
 يفتح أمامي أفقاً حافلاً بالأعمال : كنت أتطلع إليه طفلة . وأصبو إليه
 صبية . . . وأتسمه يافعة . . . بل إن التحاق الفتاة بالمقاومة . وتدريبها
 على أعمال الحروب . جعل قلبي يقفز بين جنبي . أملاً في يوم تقف
 فيه الفتاة بجانب الفتى . في ميدان القتال . . .

ولم أتوان عن انتهاز أول فرصة . فكنت من أوائل الفتيات اللواتي
 التحقن بمركز للتدريب على حمل السلاح . . .
 كيف أصف مشاعري ؟ أكذب إن قلت إن خبر نعي أمي كان
 أقسى على نفسي من يوم الهزيمة . ! !

وانضمت إلى صفوف تشكيل للمقاومة الفلسطينية . . . ورحلت
 إلى هناك . حاملة سلاحى وحياتى على كتفى . ممرضة ومقاتلة بين
 المجاهدين البواسل .

جرحت مرات . . . وكدت أقع أسيرة مرات . . . ولم يكن يزيدنى
 هذا إمعاناً في بذل روحى . في سبيل إنقاذ جريح من براثن
 الموت . .

خضت المعارك ، جنباً إلى جنب مع جيش التحرير . !

وشب حريق في الجزء الشرقى من المسجد الأقصى ! !

بلغنا النبأ ، ونحن نستعد لخوض معركة حشدنا لها عشرة من الرجال
وثلاثين ، كنت إحداهما . . . كنا من الحماسة بحيث عمرت قلوبنا
بالإيمان بالنصر الأكيد . . . ولم ينطق أحدنا بكلمة ، بل رحنا

نترشق النظرات . كطلقات المدافع . . وكل منا يتأجج صدره بنار
الغضب المكظوم . . .

وظللنا الليل كله نعد البعدة . . وقبل أن ينبجج نور الفجر ،
خرجنا ننشد الثأر . . وتفرقنا كما كانت الحطة ، حتى لا يكتشف
أمرنا . . واندفعنا كل إلى غايته المنشودة . .

كانت العتمة تغلف كل ما حولى ، وأنا أسير بخطوات حذرة
نحو الهدف . وفجأة . . كأنما انشقت الأرض عن بعض جنود العدو ،
يسرعون في الجرى نحوى .

وشل تفكيرى . هو الموت إذن ! وفى كسر من الثانية انحنيت ،
وقلبى يدق دقاً عنيفاً . ويدي تهتز كورقة في مهب الريح . وتناولت
قنبلة يدوية قذفتها على أعدائى . ومن خلال التراب الثائر عقب دوى
الانفجار ، لحت أشباحاً تسقط ، وأنا أجرى بأقصى ما أسعفتنى به
قدماى . ثم ارتيمت بين الأحراش بعيداً عن الخطر . .

وانتهيت على صوت بجائى . فإذا بى ملقاة على مقربة من شخص
يئن أنيناً خافتاً ! كلا ! لم يكن من الأعداء . . ولم يكن أيضاً من
جماعتنا . . كان بكتفه جرح ينزف من خلال ثقب في ملابسه . .
وكان فاقد الوعي .

وحملته على كتفى ونخضت النهر — أشبه بالجدول الصغير هو —
إلى الضفة الأخرى .

وما إن وضعته فى أول معقل سرى لنا ، حتى تحولت إلى ممرضة

لا هم لها إلا إنقاذ جريح على وشك الموت . . وأسرت أنصو عنه
ثيابه . وأغسل جرحه . وأضمده . وألثمه . وما إن انتهيت ، حتى
فتح عينيه في إفاقة بطيئة . .

ونظر كل منا إلى الآخر . كلا ! ليس دو . . إنه يشبهه حقاً .
ولكن الآخر له شعر أصفر غزير . . غزير جداً . حتى إننى كنت
أحسده عليه فى صغرننا . وبشرة بيضاء ناصعة . . أما هذا فأصلع
الرأس . . أسمر المحيا . .

وطرفت عيناه . ثم أغمضتهما . . ثم عاد يفتحهما مرة ثانية .
وهو يرمقنى بشدة وعجب . . وفتح فمه ليقول شيئاً . . ثم أطبق
شفتيه . وكأنما راح فى غيبوبة مرة ثانية . .

وخشيت أن يكون ما نرفه من دم أثر على قلبه . ورحت أدلك
يديه . وأنحس جبينه ، وأضع أذنى على قلبه . أسمع نبضاته . .

كلا ! إن بنيانه من النوع الذى يقاوم بلا شك مثل هذا الجرح .
وأحضرت له شراباً . ورفعت رأسه إلى صدرى . وقربتة من
شفتيه . وفتح عينيه مرة أخرى ، وقبل أن يرشف جرعة من الشراب .
قال وعيناه الكليلتان تتفحصاننى فى تلهف :

— منى ؟

وأحسست بقلبي تشتد ضرباته ، وأنا أجيبه غير مصدقة :

— حازم ؟

وفي تلك اللحظة اندفع إلى المعقل بقية الجماعة يحملون أحدهم جريحاً . . .

وتركت حازم . لأقوم بواجبي نحو هذا الجريح . . وكان الجميع يتكلمون . في نفس واحد . عما أحرزوه من نصر . . .

وانتهيت من عملي . . وقبل أن أرفع رأسي وجدت يداً تضغط على يدي . وصوتاً هامساً يقسم :

— سنحررها . . أتذكرين ؟

ودون أن ألتفت . ضغطت على اليد بحماسة وتحركت شفتاي هامستين في رجفة إصرار :

— نعم سنحررها . . .

قلتها هذه المرة . دون أن يعتريني الخوف من زراية قديمي موضع جرح قديم ، لم يعد له وجود في أعماقي . . .

النفسير



فتحت عينيها الصغيرتين السوداوين اللامعتين . وسط وجهه كالشهاد
المصطفى : تنظر فيما حوذا غير مصادقة . . فالحجرة — على سعتها —
مليئة بمن كانت تقوم على خدمتهم بلا ولاء . . الصغير منهم قبل
الكبير . . لا تكل . . وإذا أغضت . أو تباطأت . . يجب دائماً . .
ومنها كانت الأحوال . أن تلبى بمجرد النداء عليها . . وإلا تكاثرت
عليها النعوت . . .

هكذا درجت جميلة . منذ أن وطئت قدمها هذا البيت العتيق . .
هذا البيت الذى تقوم فيه بخدمة مزدوجة . ومعها اثنان من الرجال
الأشداء . . بين الغرف وتنظيفها . وبين ملازمة الشابة الجميلة
« إحسان » . يانعة الوجه . التى امتحنها القدر فى ساقىها . بقدر
ما أغدق على ملامحها من أناقة . . وعلى لسانها من ذلاقة . . وعلى
ذهنها من توقد . . .

وتفرست جميلة فى الوجوه من حولها : ها هو سيدها . فارغ
الطول . سمح الحيا . بادی الإشراف . . يقرب وفى يده علبة مليئة
بالبسكويت ! يقدمها إليها . وهى جالسة فى الصدارة ! . فى ثوب
أحمر فاقع . . ! فتمد يدها كالمنومة لتأخذ قطعة . ترفعها إلى
فمها . وتأكل كأوجه سيدة فى الزائرات — لولا أن يدها — تختلف
عن أيديهن الناعمة — حمراء متوردة من كثرة دلك البلاط . . .

سيدها هذا الذى يرتجف انكل منه . . . يقف على خدمتها ! !
 من كان يظن أن الست « فتكات » ، قريبة العائلة المقربة -
 تجلس على المقعد بجانبها . وتتبسط معها فى حديث ذى شجون ! !
 هذه السيدة التى تأنف من لمس أى شىء . . . !
 من كان يظن أن سيدتها المترفة تقدم لها بيدها الشرابات . . .
 الشرابات الذى عصرته بيدها . وعلى نفقتها . . . وتتحدثها بكلمة
 مزاح ومباشرة . . . ما تمت فى حياتها قدر أن تسمعها من فيها
 العذب . . . !

والسيدة الكبيرة . ربة البيت . صاحبة المقام الرفيع . التى ينحنى
 الكبير قبل الصغير ليقبل يدها احتراماً وإعزازاً . لمكانتها المرموقة فى
 العائلة كلها . . . هذه السيدة تنظر إليها فى حنان . حنان كالذى
 تراه فى عينيها دائماً . كلما تقدم فيها حفيد من أحفادها . . .
 وعلى الأريكة الكبيرة . كانت تجلس سيدتها « إحسان » فى
 صمت . واضحة يدها فوق وسادة على ركبتيهما . وإحدى يديها تسند
 ربهما وجهها كوجوه القديسين . . . وفى عينيها حزن دفين تموده بالابتسام !
 تنظر إليها من طرف خفى . دون أن تنطق بكلمة . . .

وعلى المقاعد حولها رجال ونساء من أقارب العائلة والجيران . الكل
 جاء للمشاركة فى الفرح بها ! ! بها هى ! !

ومسحت وجهها بيدها . مسحته بعنف . من منابت شعرها حتى
 ذقنها . . . وبطرف عينيها نظرت إلى جوارها على الأريكة . فلمحته

يجلس في انكماش . واضعاً يديه بين فخذيه ، ورأسه منحني فوق صدره . وعيناه إلى الأرض . . .

هذا الشاب الحبيّ الحجول . ساعى البريد . أفندي ملء ثيابه . معه الإعدادية وشرفك ! ! اختارته هي - نورة الحنة - كما كان يلقبها جدعان الحى - اختارته من بين عشرات الشبان : المكوجى ، والبواب ، والقران ، والسفرجى ، والطباخ . الكل يسيل لعابهم عليها ، كلما أملت بقوامها القارع ، فلا تعيرهم التفاتاً ، بعد أن أعطت قلبها لصاحب البدلة الصفراء . . . وتعاهدا على الزواج . . .

ولكن قابليتهما العقبات . فإذا كان هو يتيا - مقطوعاً من شجرة - فلا أقل من أن يكون لها أهل ، يطلبها منهم رسمياً . هكذا أراد حتى لا يعرض نفسه ووظيفته للمتاعب ، مع بنت السابعة عشرة والجيش الحرار من التيمين بها . . .

فأين أهلها ؟ لها وليس لها أهل ! ففى بلدتها رأى أمها مشغولة بنفسها ، بعد موت زوجها والد جميلة . ولعلها على وشك أن تكون فى عصمة رجل آخر ، وكان ردها عليه ، وهى ترخى الطرحة على جانب وجهها الذى يشبه كثيراً وجه حبيبته ، برغم زحف السن على ملامحها :

— ابنتى حرة . تعرف خلاصها . تتزوج ممن تريد . . .

وعاد إليها كسير القلب ، لا يدرى إلى أى حد سوف تواجهه المصاعب : من مخدوميهها أولاً ، ثم ممن حوله ، إن هو تزوجها فى الخفاء . . .

وطيبت خاطره بنت السابعة عشرة . التي تدرى من الحياة أضعاف
ما يدريه هو ابن الثانية والعشرين : الغر اليتيم . . .
وقضت كل شئ على سيدتها « إحصان » : فهي التي تقضى
لها حاجاتها وتلازمها حتى في الحمام . . .

ونظرت ابنة الثلاثين : إلى ابنة السابعة عشرة المتفجرة بالحياة .
وقد لمست في نفسها وترأ حساساً . . إلا أن نوراوية إيمانها طمست
عوامل حقدتها على هذه الفتاة ، التي كانت تتصرف معها أحيانا
بنذالة ، مستغلة حاجتها إليها ، ثم قالت لها :
— اتركى المسألة على .

ومن مكانها في الصدارة : نظرت إلى سيدتها وأغضت .
يوم أن عرفت « محروس » : كان لم يمض عليها شهران في خدمة
العائلة . لا تملك إلا جلبابا عتيقاً . نحيفة القد . هزيلة الحيا . . .
فأطعموها وكسوها : وبين شهر وآخر : أصبحت كالزهرة البانعة .
وإن كانت زوجة البواب — حسداً منها — تشبهها بالعجلة ! ضربة
تأخذها

ويوم احتاجت إلى نقود — ربما لتشتري هدية لمحروس — لم تمد
يدها إلا إلى نقود سيدتها « إحصان » ! وأخذت مبلغاً كبيراً : كانت
تحتفظ به لشراء حلية ذهبية . . ولم ينفع معها تهديد أو وعيد لتقرر .
أنكرت على طول الخط . . وكان في مقدورهم أن يذيقوها العذاب
ألوانا لتعترف ، ولكنهم اكتفوا بتخويفها إن هي أقدمت على مثل هذه

الفعلة . برميها في السجن . . . غبطة وفاتت . . .

وهزت رأسها . كأنما تضرد شبحاً . واحتست قليلاً من كوب
الشربات في يدها . وهي تشعر أنها ملكة كل ما تريد . فبين أفراد
العائلة والزائرين تجلس كواحدة منهم . لظالما تمت أن تضع رجلاً
فوق رجل . كذاك البخارة التي تلبس البنطلون المحزق . إذن لظهر بعض
ما خفي من جسمها الريان . . ! وتتكلم بنصف لسان . وتضحك ملء
فيها بصوت كأجراس الموسيقى . . ولكن . هل تستطيع أن تفعل ذلك
برغم احتوائهم في يوم خطبتها . ؟

وبنصف عين نظرت إلى سيدتها . وهو جالس هناك يقرأ الفاتحة .
مع عريسها ورجال العائلة .

يوم أن طلب منها أن تحضر عريسها . ليمتق معه على زواجها
— إلهي يطول عمره ! — كان ودوداً رقيقاً . كعهدها به في معاملته
للخدم جميعاً . فهو يقف بنفسه على إطعامهم . وكسائهم . وتوفير
الراحة لهم قبل أهل البيت ! لا تنسى يوم أن « طب عليهم » ضيوف
ساعة الغداء . ولم يبق للخدم شيء من اللحم . كيف أمر سيدتها أن
تعد لحمًا لهم . وكانت الساعة أوشكت على الرابعة مساء . . . ولم
يسترح حتى رآهم جميعاً وكل يأكل نصيبه .
قال الحبيبة :

— ستأخذها من عندي . وسأتكفل أذا بكل لوازمها . ولكن لن
أعطيها لك قبل أن تقدم لها شبكة ، ومهرًا . وأرى بنفسى ما أعددت

خاف في الخجرة التي ستسكنها فيها . . . سنة سنتان . . . لسنا على عجلة
من أمرها . المهم أن تكون أنت مستعداً . . .
وتفرست فيمن حولها :

لماذا لا يزغرد أحد ؟ وتنهدت .

وشق الصمت صوت نفير في الشارع . صاحب صندوق الدنيا .
يدعو الصغار . . . عم « زيزو » ! . تعرف صوته جيداً . وتحفظ
« أسطوانته » عن ظهر قلب . . . السفيرة عزيزة . والزناى خليفة . . .
« ساعة فرجة بقرش يا أولاد . . . » هجاص ! كلها دقائق تمر
كاللحم ثم ينفخ في نفيه مرة أخرى . . . ويصيح بصوته « الحياتى » :
- الدور خلاص !

وكم من علقه توبيخ ، و « زغدين » « على الماشى » : أكلتهما
بسبب نفير عم زيزو ، وغرامها بصندوق الدنيا ، كلما صادفته في
السوق ، وهي تشتري حاجات المطبخ . . .

واليوم . هي شخصياً السفيرة عزيزة . . . « ويا عواذل فلفلوا » .
لماذا لا يرقص لها أحد ؟ ماذا لو قامت هي من مكانها ، ورقصت
« عشرة بلدى » ، كما رقصت في فرح ابنة البواب ، في العمارة خلفهم ؟
وكما رقصت أيضاً لابنة ساكن البدروم ؟

ولكن . هل ترقص العروس وسط هذا الحفل من الناس القوادم . ؟
نهايته ! في الفرح يبقى ربنا يعد لها . . . !
وزاغت عيناها .

ها هو ابن سيدها يدير لها الريكورد . .
يا فرحتها ! يا نشوتها بهذه الآلة التي كانت تتمنى دائماً أن تجلس
معهم ، لتسمع أغاني أم كلثوم المسجلة عليها .
من خلف الباب كانت تقف لتسمع للصوت الشجي ، والحجرة
مكتظة بالزائرين والزائرات . يستمعون في سكون الحاشعين . . .
وهي ترمقهم ، وتتمنى لو أتيح لها يوماً أن تجلس في وسطهم . .
وتضع رجلاً على رجل ، ودخان السجارة يتصاعد في حلقات زرقاء
من أنفها . . .

ها هي استطاعت أن تجلس على الأقل وسطهم وتسمع . . .
واعتدلت في جلستها ، وفي يدها كوب الشربات ، ترتشف منه
ببطء ، رشقات صغيرة لتظل الكوب في يدها أطول وقت ممكن ،
ولتستمتع بجو الحجرة المعطر بأنسام الزائرات . . .
وفجأة رأت خطيبها يقف ، ويطلب من سيدها أن يسمح لها
بالذهاب معه ، لكتابة اسميهما على خاتمي الخطبة .

وفي ذهولها رأت الأفواه جميعاً تطلب منها القيام ! هذه الأفواه التي
طلما أنبتها وزجرتها حيناً كانت تخرج لتقابله ! إنهم اليوم يدفعونها
دفعاً لتخرج معه ! ! هذا اليوم بالذات تتخلي عن نصف عمرها ،
ثمناً لقضاء ساعة أخرى في هذا البحر الذي تمت طيلة عمرها أن
تعيش فيه . . .

وكالمزومة ، خرجت خلفه . لم تستطع أن تنفوه . وفي حياتها لم تتمنى

أن تنشق الأرض وتبتلع أحداً : كما تمت الآن أن تنشق وتبتلع
خطيبها . . .

وسمعت صوت سيدتها الشابة يتعقبها بحزم :

— جميلة ! . . لا تطيلي الغياب . فاهمة !

ومن الشارع دوى نفير عم « زيزو » مؤذناً الأولاد .

— الدور خلاص . . .

العودة



. . . وتلاقينا . . . فى وقت كنت فيه كالتائه . . . وحدة قاتلة . . .
وفراغ مميت . . . وضياح . ضياح فى خضم الحياة . . . ضياح وسط
المدينة الواسعة . . . كالغريق تتلقفه الأمواج وتدفعه بعنف حينما اتفق .
واصطدمت بها . . . وجهها لوجه ! . . . وكأنما قطعتان من النفاية جرفهما
التيار من التربة الصغيرة إلى النهر الكبير . وفى عرضه تلاقيا . . .
ووقفنا مذهولين . . . وتعلقت نظرات كل منا بالآخر ، وتوارى
العالم من حولنا ، بضجيجيه . . . بصخبه . . . بكل ما فيه . ونطقت العيون
بذكريات مرة . . . ذكريات موجعة . . . كانت حرية أن تندثر إلى
الأبد . . . لولا هذا اللقاء المفاجئ . . .
وكانت أسبق منى إلى التحكم فى عواطفها حينما نطقت بصوت
أسيف . . .

.. أنت ؟ !

ودون أن أدري ، لففت ذراعى حول ذراعها ، وجذبتها من وسط
الزحام . . . وسرنا ! من كان يظن أن ذلك يحدث يوما ؟ !
فى قرينتنا الصغيرة جمعنا أول لقاء : أنا ابن أحد وجهائها ، وهى
الفتاة السيئة السمعة ، النازحة من قرية أخرى لتعمل . . . ثم تحمل
سفاحاً . . . ممن ؟ لا أحد يدري . . . ولا هى باحت باسم الفاعل ،
برغم كل ما لاقت من صنوف العذاب . . .

ويتكفل الكل ضدها : وأنا أول المتحاملين عليها . . . وأنا . . .
من أنا ؟ الابن الفاشل في الأسرة ، بين إخوة تلقوا العلم جديعاً ، حتى
وصل الأكبر إلى التخرج من الجامعة : بينما الصغار كل في طريقه
إليها . . . وبليل فرت بعارها خوفاً من القتل .

وثقلت حياة القرية على فاشل مثلي ، بين إخوة مصدر فخر
وإعزاز ، فشددت الرحال — دون أن أخبر أحداً — ونزلت إلى عالم
آخر . . . عالم عجيب بالنسبة لابن القرية الغر . . . الحمام . الفاشل .
عالم مشير . . . كل ما فيه يزيغ البصر . . . عالم المدينة الكبيرة الزاخرة
بشتات الناس . . .

وأحسست بالضآلة ، وسط هذا الخضم الغريب . . . ولكن التراجع
أصبح محالاً . . . فقد عولت على أن أشق طريقى في الحياة ، مهما
صادفتني العقبات . . .

وكانت العقبات أكثر مما أحتمل . . . عقبات من كل نوع : بت
على الأرصفة أحيانا ! وبت على الطوى ، وأمعانى تتلوى جوعاً . . .
وبت وملابسى لا تستر عرى . . . وبت وبرد قارس يلسع جسدى
ويفريه قريبا . . . ومع كل ذلك تحملت . . . وشققت طريقى في
الصخر . . . لأجد عملاً وضيعاً ، تافهاً ، يسد الرمق ، دون أن
أجسر على العودة إلى بيت أبى ، حيث الحياة الرخية ، والملبس
والمأكل الحسن . . .

عرفت معنى الجوع ، ومعنى الفاقة . وقدرت كيف تهون النفس

وتذل . للحصول على لقمة العيش . . . وكيف يبيت الإنسان مندحرًا .
وهو لا يعلم كيف يواجه غده . وبعد غده . . .
ووسط كل هذه العقبات اصطدمت بها . ضائعة مثلى . .
إنفاية جرفها التيار . . ذائلة لا عائل ذا ولا سند . تلتقط لقياتها من
أبشع طريق . . .

وتزوجتها ! ! وماذا بعد ؟ !

حينما يصل الحال بإنسان إلى أسفل درك . يصبح وكل شيء لديه
سواء . . نعم ! وماذا بعد ؟ تزوجتها . . فهل استرحت في حياتي ؟
كالعبادة المطيعة كانت تستجيب لكل إشارة مني . . فأنا بالنسبة
لها قارب النجاة . الذى أرسى حياتها على بر الأمان .
أما أنا . ففرارة تفغم حلقى كلما وقع نظرى عليها . . مزيج من
الغضب . والحزن . واليأس . والغثيان . يمور في أمعائى لهذا المصير
الذى وصلت إليه . .

ولكن . . . مع الأيام والشهور والسنين كل فوران إلى ركود . . .
وكل نار إلى رماد . . .

بدأ الاستقرار يدب ويبدأ إلى النفس الفوارة . بعد أن أنجبت لى
طفلة لطيفة . ملأت دنياى زخاطا . . وتعلقت بها . بالطفلة .
تعلقًا أحسسته ينتزع كل حقد على أمها . . ورحت أعمل باجتهاد .
لأوفر لها ولأمها حياة أفضل . . .

ما أجمل الراحة . وما أفضع العذاب . . وما أبشع أن يكون للمرء

ضمير . . ! فغالبا ما كان يثور هذا الضمير . فأنتقلب إلى وحش .
 وبكل يأسى وحقدى وفشلى : أهجم عليها أوسعها صربرا وشما .
 فتتكمش على نفسها : لا تنبس بكلمة . . تحنى رأسها تحت وابل
 الضربات : دون أن تسأل عن السبب ... حتى إذا هدأت العاصفة :
 تجرجر رجلها إلى حجرة أخرى . تسكب دموعا سخينا في غير ما صوت
 أو حركة . . !

وبين هذه الحياة المتضاربة غير المستقرة . . وبين اليأس والقنوط
 والأمل . . . لقيت أبى وإخوتى . . ! فجأة . . !

وفى مظاهرة من الأحضان والقبالات تلقفونى . . . ومن خلال
 دموع أبى الغزيرة . قال بصوت متهدج :

— أمك تموت كل يوم حزنا عليك . . كلت أقدامنا من كثرة
 البحث عنك . أين كنت ؟ ! وكيف حالك ؟ ! وأين تعيش ؟ وماذا
 تعمل ؟ هيا يا بنى ! لن أتركك . .

أسئلة متلاحقة ، راح يحطرنى بها ، وهو ينحسنى ، كأنما يتحس
 قطعة من نفسه عادت إليه ، بعد أن فقد الأمل فى استرجاعها . . !
 وبين هذه المظاهرة من العواطف الحقيقية . . العواطف الخالية
 من الزيف . . تمثلت حياتى . وارتعدت . . .

إذا كنت حقاً أستطيع العودة إلى بيت أبى . لأعمل معه فى
 أرضه ، وأعيش الحياة التى أتمناها . . فماذا أصنع بزوجتى ؟
 وأحسست بطنين لكلمة زوجتى . ! فأنا بها منفصل عن مجتمع

عائلتي تماما . . . ولن يسعني قول أو عمل . للبروح نعم بهذا الزواج . . .
 هل أرفض الرجوع معهم ، بعد كل ما سمعت وأحسست ؟
 وأمي ؟ أمي الغالية ؟ أمي الحبيبة ؟ هل أكسر قلبها وأنزلا إلى القبر
 محزونة ، دون أن تراني ؟ ومن أجل من ؟ !
 ورحت أدور في حلقة مشرقة ، وأبني ينظر إلى غير مصدق أن
 أرفض إلحاحه ، في العودة إلى أمي ، التي تتلهف شوقاً إلى . . . وإلى
 حياة كل ما فيها يوحى بالطمأنينة . . . ولا بد أنه فطن إلى وثائق هيثي
 وملبسي . . . فصاح بي :

— لماذا تتواني ؟ أليدك ما يربطك بهذه المدينة الصاخبة ؟

وتولاني إحساس وجيع بالذنب ! المسكينة . ماذا فعلت لي كي
 أقسر عليها وأحرمها من فلذة كبدها ، ومن السند الوحيد في حياتها ؟
 أبداً لم ترتكب خطأ منذ تزوجتها . . . تخدمني بكل طاقتها . . . ولكن .
 هل أخبرهم بزواجي منها ؟ أكيد ، ودون موارد سأقضي على أبي بهذا
 الاعتراف . . . سأقتل أمي بهذه الفجيرة . . . وسيهون عليهم موتى ،
 ولا أدخل القرية بهذه العاهرة في يدي . . .

وأمضيت اليأس من غفرانهم ، واليأس إحدى الراحتين ، فقلت
 بصوت خفيض ولكنه واضح :

— لقد تزوجت !

ولم أر وجه أبي متهاولاً كما رأيته وهو يعود لاحتضاني وتقبيلي قائلاً :
 — وماذا في ذلك ؟ ! أنا وأملك نعيش بمفردنا بعد أن نزع إخوتك

جميعاً إلى المدينة . للعمل والعمى . . وأملك في أشد الحاجة إلى شابة ،
تعيّنها على حمل مسؤولية البيت . . أدلا بها يا بني . . سهلاً . . أين
هي ؟ هيا بنا إليها . . .

وزادني كلامه حزنًا على حزن ، وأنا أتخيل تحول وجهه المتهلل إلى
الكفهرار . . . وأحسست بعبث الحياة . . وبالضياع . . وتراكت
الحموم على . . . وتمنيت لو تنشق الأرض وتبتلعني ، أو تسقط قنبلة
علينا وتبيدنا جميعاً . . .

— لماذا أنت صامت هكذا ؟ هيا بنا !

قالها أبي وهو يدفعني أمامه إلى سيارة أجرة ، أشار إليها فوقفت
بجوارنا . .

وتلفت إليه في ذهول . ووجدتني أقول :

— إلى أين ؟ فصاح بي :

— إلى بيتك طبعاً ! أترفض أن نزورك ؟ !

فأجبت في يأس ، وأنا أنتزع الكلمات من فمي :

— لنتكلم أولاً يا أباي ، ثم بعد ذلك نفكر في الذهاب . .

— نتكلم هناك يا أخى ، هيا بنا هيا !

وشدني من ذراعي ، وبيده دفعني من ظهري ، ليدخلني في السيارة ،

فإذا بي كالوتد الراسخ في الأرض ، لا أمل في نزعته . . . والتفت

ينظر في وجهي ، ولعل هول منظري أشعره بخطورة ما أعاني ، فصرف

السيارة بحركة من يده ، واقتادني إلى مكان هادئ . . .

وقصصت عليهم كل شيء

وكما توقعت . كان وجه أبي يتحول من الاحمرار إلى الاصفرار
إلى الاحمرار . . . وهو يضغط على أسنانه حتى أحسسته واقعاً
في محالة . . . مغشياً عليه . ولكنه تجلد ليدفع نفسه بالقوة من
السقوط . . .

وسكت . أما هو فلم يرفع عينيه عن الأرض . كان يركز بيديه
الاثنتين على عصاه الغليظة . كأنما يحتمي بها من الانهيار . . .
وإخوتى صامتون . ينقلون البصر بين أبيهم وبينى . كأن على رؤسهم
الطير . . .

وفجأة رفع أبي عينيه إلى وقال بصوت أجش :

— الله يغفر . أفلا تغفرون ! هات زوجتك . وهيا بنا .

. . .

وللمرة الأولى في حياتها منذ تزوجنا وقفت أمامى تجادرنى بالرفض !
وأقسمت ألا تعود معى ! أقسمت وهى تبكى بكاء مرّاً أن آخذ ابنتى
وأرביها وسط أهلى ! أما هى فستعرف كيف تدبر أمرها . . .
ورأيتنى أحضنها وعذاب يملأ نفسى كلها . وابنتنا ترفزق بين
أرجلنا صائحة :

— إلى أين يا أبى ؟

وتبخر كل أمل في العودة . . .

أمّ



الإصابات عميقة .. البتر لا يد منه .. غيبوبة تلاحقه وسط ساعات
الصحو الأليمة .. غيبوبة تتخللها أدوال الصراع الدموي . . . ولكن
إحساسًا بالرضا يسرى في أوصاله ، فيبتعث دفنًا في موات أطرافه :
قبل أن يفقد وعيه استطاع أن ينقذ سرية من هلاك محقق . . ونجوا
عن آخرهم بعد أن ضحى بحياته .
ضحى بحياته ؟ !

إذن فما هذا الذي يحسه من حوله ؟ !
ولكن ! كيف نجا ؟ ! هذه معجزة ! هل الحياة ردت إليه بعد
أن فقدوها ؟ !

وبجهد فتح عينيه . . ليرى الدنيا مرة ثانية . . ليحس أنه على
أقيد الحياة حقًا وصدقًا ، وليس ما يستشعره « أضغاث أموات .. ! »
ومن خلال نظراته المتعبية ، رأى وجوهًا كثيرة . . كلا ! هذه
ليست وجوهًا بل عيون . . . فالبياض يخفى كل شيء إلا العيون :
عيون تترقب . . وعيون قلقة . . وعيون متأناة . . ولكنها كلها عيون
يقظة . . !

ما كل هذا الذي يراه ؟ !
مهمات تصل إلى أذنيه . .
ها هو ذا يسمع أيضًا !

الحمد لله . . . السمع أيضاً لم يفقده . . . كل شيء بعد هذا
يهون . . .

وبدأت العافية تدب في أوصاله ، بعد أن رأى زجاجة « البلازما »
معلقة أمامه ، وأحس بسريان الدم في ذراعه . . .
وأزاح الأطباء الأقنعة البيضاء ، وصاح كبيرهم ، وهو يخرج زفرة
طويلة ، وعيناه تومضان ارتياحاً :
- أخيراً . . .

عشرة أيام وهو فاقد الوعي . استمات الأطباء في إنقاذ حياته . .
عشرات من زجاجات البلازما أعطيت له . . جراحات شتى أجريت
له . . لم ييأسوا . . . وبعد عذاب ممض ، فقدوا الأمل في نجاته . .
ولكن في العمر بقية . . . وها هو ذا يعود إلى الحياة . . ومرة أخرى
سيرى « أمل » . . . معبودته الصغيرة . .
- الحمد لله على سلامتكم . .

لم يكن يسمع سوى هذه الكلمة من كل طبيب يمر به . . فأدرك
إلى أي حد كانت حالته من الخطورة . . وإلى أي مدى بذل الجهد
في إنقاذه . . .

وأحس استرخاء ، أشبه بخدر النعاس ، يستولى على كل جارحة
فيه . . لا بد أنه مفعول الحقنة المخدرة . . ولكن نقطة في وعيه لم تنزل
ساهرة تكافح الكرى . .

وكان مساء . . وكان صباح .

ومع النور . وحرارة الحياة . بدأت « طذعات » الأصدقاء . . .
 ها هم إخوانه فى السلاح والكفاح يتناوبون السؤال عنه . . . بعيون
 متلهفة . . . وقلوب تنفض بالود . . . كل يوم يرى عشرات من الزوار
 لم يسبق له معرفتهم . . . الكل يسأل . ويتمنى الشفاء . حتى خيل
 إليه أن ما من أحد يزور المستشفى إلا ويمر عليه . . !
 وأتخمتة الهدايا . حتى لم يعد يجد لها مكانا .
 أقارب الجرحى الآخرون . وأصدقائهم يمرون عليه . ويحيونه .
 وكأن صداقة قديمة تربطه بهذه الوجوه . التى لم يرها من قبل . . .
 جميل أن نحس الإنسان أنه قام بعمل يقدره الناس . . . حتى
 الذين لا يعرفهم . . .
 ولكن أين « أمل » ؟ وأين زوجته ؟ لماذا لا يراها مع كثرة
 من يرى ؟ !

— ليس الآن !

قالوا الطبيب وهو يحاول أن يربت كتفه بلطف فكل ما فيه
 مغطى بضمادات . . . الطعام يوضع فى فمه بيد الممرضة . . . كذلك
 الشراب . . . وملحقات الطعام والشراب . . .

— أليس الأفضل أن ترياك وأنت على حال أحسن من هذه ؟

أخيراً جاء اليوم الذى فكت فيه بعض ضماداته . وسمح له أن
 يجلس على كرسي ذى عجلات .

كانت فرحته لا حد لها . . . فقد تقدم الطب بحيث يمكن أن

يركبوا له سائلاً أخرى . بدل التي فقدتها . . أما ذراعاه اليسرى . فقد
 قيل له إنه علاجها ميسور بعد عدة جراحات . . واليمنى كل ما بها
 كدمات . تحتاج إلى تدليك وجلسات كهرباء . . أمرها سهل !

ولكنه يريد أن يرى وجهه . . أن يرى مدى التغير الذي طرأ
 عليه . . ينبغي ألا تراه « أمل » على صورة لا يرضاها لنفسه . .

لشد ما تغير ! لشد ما أصابه الخزال . لشد ما عسخ وجرحه الوسيم ،
 فأصبح دمعاً مغضناً شاحباً كوجوه الموتى . !

كلا . لن يسمح لأمل بأن تراه وهو على هذه الحال . . عليه
 أن ينتظر . . ولا زوجته أيضاً يجب أن تراه . .

— إنها أيام . أيام معدودة . . وتعود إلى حالتك الأولى . . عليك
 فتنظ أن تأكل كل ما يقدم لك . لتبرد عافيتك .

هكذا قال له الطبيب المعالج . .

ولكن الأيام تمر . . والمستشفى يكتظ بالزوار . . وفي كل حجرة

يرى الزوجات والأطفال . . والضحكات تدوى . . وزناط الأطفال

يملاً الممرات . . والكل ينهم بسؤال الأهل والأقرباء . . وتتندى عيناه

بالدمع . . وتمتلئ جيوبه بقطع الشكولاته . كلما دفع صديق

كرسيه ذا العجلات للسؤال عن جريح . . فهذه القطع يحتفظ بها

لأمل . . ويشعر بوقع نظرات العطف من خلفه تشع من عيون الزوجات

والأمهات . . ويشيع بسيل من الدعوات . .

يوم آخر من أيام الزيارة . .

لقد بات يعرف تلك الأيام جيداً ، ويميزها بين الأيام التي تمر
متشابهة في المستشفى . . . ففي يوم الزيارة كل شيء يلمع . . . وعلى
الجدار المنخفض الذي يفصل دهليز عنبر الجراحة عن دهليز عنبر
العظام . يبرز « قرقول شرف » عبارة عن طاوور من الزهريات
المتشابهة . كأنها جنود في كسوة رسمية موحدة . . . وفيها أزهار متشابهة
« التشكيلات » من أبدع الأزاهير وأنضرها . . .

وفي ركن الدهليز ، جثم على كرسيه ذى العجلات يرقب أوائل
أسراب الزوار . . . ويرنو إلى الأزهار الجميلة ، التي تصافح العين
من ارتفاعها في شموخ . . .

مع الزوار أولاد وبنات . . .

تري متى يرى ابنته هو . . . أمل ؟

الصغار لا يطيقون المكث طويلاً داخل الحجرات . . . سرعان
ما يخرجون إلى الدهليز . . . ويرقب حركاتهم ، وعيونهم اللامعة ،
من ركنه ، في سرور صامت ، ويتخيل « أمل » تلعب معهم ذات
يوم . . .

ورأى ولداً . . . لعله في السابعة أو أصغر قليلاً . . . يقف قبالة . . .
وعيناه تلمعان كالماس الأسود ، يتطلع إليه بإمعان ، وهو واقف على
رجل واحدة ، يدق الأرض برجله الأخرى . . .

وفجأة . وبدون أن يتسع الوقت للتفكير . استدار الولد خلفه . . .

وأخذ يدفع كرسيه المتحرك بسرعة الصاروخ نحو الحائط . . !
 ودار كل شيء في رأسه ، كأنما تجمعت داخله خلية من النحل
 البرى . . .

ذراعاه أوهن من أن تستخدمهما « مازعة تصادم » مع الحائط . .
 أما رجلاه ؟ ! أى مهرب له وقد أصبح العوبة في يد طفل عابث . ؟ !
 واحتبست في حلقة الصرخة ، وقد جمدته برودة العجز اليائس . .
 أهذا كل ما تبقى مما يسمونه بطولة ؟ ما أهون كل شيء . !
 ترى ماذا أوقف اندفاع العجلات قبل ارتطامه بالحائط ببضعة
 سنتيمترات ؟ !

والثفت خلفه ليرى ماذا عاق الولد عن جنونه الطائش ؟ أتدخل
 أحد في آخر لحظة ؟

الولد يتحرك بكل هدوء . . وحده . . ليس معه أحد . . لا ينظر
 إليه . . بل يقيس بعينه شيئاً . . ثم يضغط على شفته السفلى ،
 ويأتى بكرسي يضعه بجواره . . .

لماذا اختار أن يجلس بجواره هنا إن كان الجلموس بجواره ما يريد ؟ !
 ولكن الولد لا يجلس !

إنه يتسلق الكرسي ، يقف فوقه ويشبّ على أصابع قدميه ،
 لتصل أنامله إلى زهرة بيضاء في إحدى الزهريات . ويستدير فيقدمها
 إليه . . . ولا يقول شيئاً . . .

وقاض الارتياح المكبوت عرقاً على جبينه . . وتنفس الصعداء . .

وأدنى أنفه من الزهرة اليانعة يلمس في عطرها العزاء . .
 ما أعجب قدرة الإنسان . ! من البلاستك كانت الزهرة . !
 ولكنها ذات نضرة لا تذبل !

هذا أفضل ! سأحتفظ بها مع الشظايا التي أخرجوها من سائى !
 وتلئت يلمس الولد . فهو يستحق أن يشكره على كل حال
 لم يدرك بذهنه أن حماسه المندفعة يمكن أن تفرغ به بطالا
 ولكنه وجد الولد قد اندفع في اللعب مع رفاق جمعتهم به الصدفة . .
 . . . يوم زيارة أعمته أيام . .

وأخيراً . . ذات صباح قال له الطبيب بنظرة مريحة :

— مبروك يا عم ! اليوم تستطيع أن ترى أسرتك !
 ومنذ الصباح الباكر طلب أن يخلق ذقنه . . وتضمخ بماء
 الكولونيا . . ولبس بيجامة نظيفة ناصعة البياض . . وفى مبرات
 المستشفى راح يجرى بكروسيه مستعيناً بيده السليمة . مطوحاً بها فى
 الهواء . . ووجهه يطفح بشراً . . .

بعد لحظات سيكون أمل بين ذراعيه . . يضمها إلى صدره بعنف
 حتى تصرخ فى مرح ، كما كان يفعل معها دائماً . .

وفطن إلى ذراعه الراقدة إلى جوار جسده لا يستطيع حراكها .
 كلا ! لن يراوده الحزن . فبذراعه الأخرى القوية يمكنه أن
 يضمها ، كأعنف ما يضم أب صغيرته الجميلة . . !
 ها هى ذى الدقائق تمر . . لم يبق على موعد الزيارة سوى

لحظات . . ترى كيف ستستقبله الصغيرة ؟
وبدأت دقائق قلبه تعنف . . وأحس بشجاعته تخونه . .
وأسرع إلى المرأة يسألها عن مدى تغيره . . لن تستطيع أن تصدقه
انقول . . فقد اعتاد رؤية نفسه أسابيع طوالا . .
. . سيغمرها بعنب الشيكولاتة . . سيملاً حجرها وجيوبها .
ويستمع بضخكاتها البريئة الملائكية . وهي تعبث بيديها الصغيرتين ،
منتشية بكثرة ما حولها من حلوى . . .
وأفاق على صوت حذاء . . حذاء يعرف دقائقه . بين آلاف
الأحذية . .
وأرشف أذنيه .
هذه زوجته تسرع الخطو . . وبجانبيها خطوات صغيرة . .
خطوات أمل . . .
واعتدل في جلسته . وعيناه على باب الحجرة . . ولوجيب قلبه
صوت أحسه كوقع حذاء جندي على أرض مرصوفة . . .
وظهرت زوجته ، بقامتها الخيفاء . تدفع الطفلة أمامها في إشراق
أبلغ من الحزن . . . وما إن وقع نظر الصغيرة عليه ، حتى تصلبت
في مكانها كأنها سميت في الأرض ، مرتكزة بظهرها على ساق والدتها
والفرع يمالأ عينيها . وقد أطبقت شفתיها القرمزيتين في عصبية . لتمنع
صرخة كادت تفلت منها . . ولم تفلح والدتها في تهدئة روعها ،
أو في حثها على التقدم خطوة واحدة . . ولا أجدت كلمات التذليل

والإغراء بقلب الشكولاتة في زحزحتها من مكانها . . .

وتركتها أمها عند الباب ، واندفعت إليه تعانقه وتناديه بالأسماء
التي اعتادت أمل أن تناديه بها . . . وهي تضحك ضحكًا هستيريًا :
تاركة لدموعها العنان دون أن تشغل نفسها بتجفيفها . . .

ونثر قطع الشكولاتة فوق الفراش ، وراح ينادى أمل بأعذب
الألفاظ ، ويذكرها بما كان بينهما في آخر لقاء . . . والطفلة ترمقه
وتنتبج حركاته في توجس . . .

ألى هذا الحد انقلبت سحنته : حتى أنكرته الطفلة ؟ ! والكبيرة ؟
ألا تستطيع التغلب على دموعها ؟ !

وطأطأ رأسه . . . وأفلتت من عينيه دموعه أحسها على يده المنطرحة
في حجره كلسعة الجمر . . .

وفجأة أحس بيدين صغيرتين تطوقان رقبته . . . وشفتين نديتين
تلتصقان بخده . . . وأنفاس صغيرة تلمحه . . .

ومد ذراعه . . . وطوق الجسم الصغير اللدن . . . بكل الحنان .
والشوق . والحب . وراح يشم رقبته ورأسها وكل جسدها . . .
بعنف كغريق ردت إليه الحياة وقد فتح رئتيه يملؤهما بعبرها . . .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٠٩٩ / ١٩٧٥

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥
١ / ٧٥ / ٢١

المحتويات

الصفحة	
٧	١ - التفتص الأحمر
١٧	٢ - هي والشمس
٢٧	٣ - سرهما الخاص
٤١	٤ - أشياء صغيرة
٤٩	٥ - الشارب المعقوف
٥٩	٦ - ونسيت كل شيء
٦٧	٧ - ثمان عيون
٧٥	٨ - السرداب
٨٥	٩ - لحظة صحو
٩٥	١٠ - يوم جديد
١٠٣	١١ - قطعة من الجلد
١١٣	١٢ - الضباب
١٢١	١٣ - الخيمة الزرقاء
١٢٩	١٤ - الأفق المفتوح
١٣٩	١٥ - حكاية قفاز
١٤٩	١٦ - صفاء
١٥٧	١٧ - شيء لا يصادق
١٦٥	١٨ - العرى
١٧٧	١٩ - رجفة إصرار
١٨٧	٢٠ - النفير
١٩٧	٢١ - العودة
٢٠٥	٢٢ - أمل